محمد سلماوى

باب التوفيق

وقصص أخرى



دار الشروق

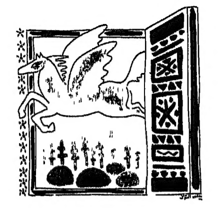


بابُ التوفيـق

الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨٦٧٥٥٥ - تلكس : SHOROK 20171 LE

محمد سلماوى



بابُ التوفيق

وقصص أخرى

دار الشروق

الغلاف والرسوم
للفنان
حلمى التونى

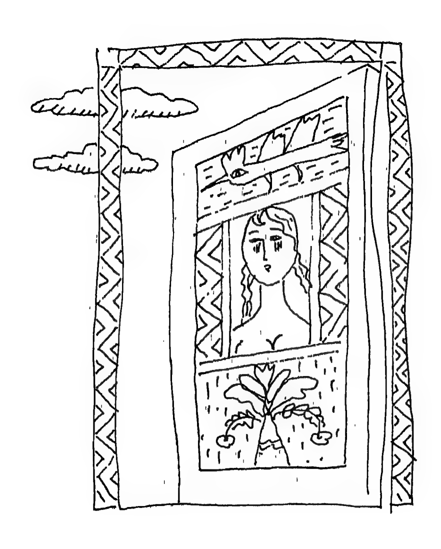
المحتويات



باب التوفيق

سوناتا شعبية فى ثلاث حركات





الحركة الأولى : بطيء حزين

لم تكن هذه هى الحياة التى كان يتطلع إليها محسن عبد الفتاح . آماله وهو شاب لم يتحقق منها شيء ، كان يحلـم بالنجاح والحب والمال لكنه لم يوفق فى أى منها ، فهاهو يعمل مدرسا لمادة الحساب التـى كان يكرهها طوال حياته ، وهاهو العمر قد قـارب على الأربعين دون أن يجد الحب الذى كان يتمناه ، بل وجده لكنه لم يحصل عليه لأن عزة زميلته بالمدرسة لاتبادله هذا الحب ، وها هو الراتب لايكاد يكفى ميزانية الأكـل وحده ، وهو لا يحب الدروس الخصوصية لأنها تأخذ الكثير من وقته الذى كان يفضل أن يقضيه فى القراءة بعيدًا عن مادة الحساب الصماء هذه .

تذكر محسن ذلك وهو فى طريقه إلى المدرسة صباح أحد أيام الشتاء القارسة فـاشتد عليـه الإحسـاس ببرودة الجو . كان يسكـن فى حـى الحسين وكانـت المدرسة فى ميدان بـاب الشعرية ، ولكى يكـون فى الفصل فى السابعة صبـاحا كـان عليه أن يترك غـرفتـه فوق سطـح المنزل رقـم ١٤ بحـارة الدرب الأصفـر بالجمالية فى السادسة والنصف ويمشى على قدميه حتى الميدان .

كانـت الدنيـا مازالـت ظلامًـا فى ذلك الصبـاح ، والشتاء يعكـس كالمرآة الفاضحة شتاء حيـاته التى كانت دائما باردة ملبدة بالغيـوم كصباح ذلك اليوم الذى لن يعود إليه ربيع ولا صيف .

مـرَّ على بيـت السحيمى القـديـم الـواقـع فى نفس الحارة التـى يقطـن بها فاسترعى انتباهه جمال معماره المملوكـى الذى كان دائما يثير فى نفسه أحاسيس

الجمال القديمة التى كان يشعر بها وهو صبى ، لكن حياته كانت قد انحصرت الآن فى حصص الحساب من السابعة صباحا حتى الثالثة بعد الظهر بتلك المدرسة الإعدادية الباعثة على السأم بحيطانها الاسمنتية التى لم تعرف لون الطلاء منذ أنشئت .

خرج من الحارة إلى شارع المعز لدين الله الفاطمى . كانت السماء قد أمطرت فى الليل ولم يبد لهذا الصباح شمس تجفِّف المياه التى غمرت الشارع فحولت ترابه الخفيف ذا اللون الطحينى إلى عجين داكن فى لون القطران .

اليوم شتاء قارس لكنه على الأقل يوم القبض . أربعة وسبعون جنيها وثلاثة وخمسون قرشا سيقبضها فى الفسحة بعد الحصة الثالثة . نعم سيقبض عليها بكلتا يديه فهى كل ما يملك من أصل خمسة وثمانين جنيها هى مجموع راتبه . بالإضافة لبعض البدلات الأخرى التى لايعرف تفصيلاتها فهى ملاليم زهيدة على أية حال . . كل ما كان يعرفه هو أنه يتم استقطاع أكثر من عشرة جنيهات من راتبه كل شهر كانت يمكن أن تسد بعض حاجاته الملحة .

استوقفه محل عبده صابر الذى كان مفتوحا على غير العادة فى تلك الساعة المبكرة . كان عم عبده يتعامل فى القطع الخشبية القديمة التى كان يبيعها لهواة جمع التحف الإسلامية .

كم من ساعات أمضاها محسن وهو صغير فى محل عم عبده العجوز ينظر إلى تلك الأخشاب القديمة المطعمة بالصدف أحيانا أو المزخرفة بالأرابسكة أحيانا أخرى ، وكم كان يسمع من عم عبده قصة كل قطعة منها : هذه من جامع الأزهر القديم قبل تجديده ، وتلك قطعة من نافذة الوالدة باشا بقصر الدوبارة ، وهذه قاعدة صنعت خصيصا لشيشة أفندينا . .

فى مرة وجد سيدة أنيقة تشترى من عم عبده بابا قديما ذا طراز عربى أصيل وسمعها تطلب من عم عبده أن يثبت فى أركانه أربع أرجل ويطليها بنفس اللون البُنى الداكن ، وكره محسن تلك السيدة الأنيقة التى كانت ستستخدم

هذه القطعة الإسلامية القديمة ليضع عليها ضيوفها أكوابهم ومنافض سجائرهم .

لكن عم عبده هذا كان رجلا غريب الأطوار وبعض سكان الحى كانوا يقولون إنه مجنون من كثرة معاشرته الآثار القديمة ، وكان محسن يخاف منه عندما كان طفلا ويخشى أن يمر من أمام محله القديم ، وقد ضحك عم عبده كثيراً حين اعترف له محسن بذلك منذ سنوات ، وذكّره بحديثه له وهو طفل حين قال له إن كل قطعة عنده لها روح فهى ليست كالأخشاب الحديثة التى تصنع منها كراسى المقاهى أو دكك المدارس ، وإنما بها عبق التاريخ .

نظر محسن داخل المحل فوجد عبده صابر واقفا وسط أخشابه وقد تحول وجهه إلى لون ترابى طالح وتلاعبت فى عينيه نظرة قلقة لم يعتدها .

ـ ماذا بك ياعم عبده ؟

ـ زوجتى !

ـ خير ياعم عبده مالها ؟

ـ فأجاب بكلمتين لا ثالثة لهما :

ـ تعيش أنت .

ثم تحولت نظرة القلق فى عينى عم عبده إلى سيل من الدموع وكأن هاتين الكلمتين كانتا تسدان قمقم الأحزان الذى انفتح فجأة بعد سنوات طوال وانتقل الحزن على الفور إلى قلب محسن :

ـ لاحول ولا قوة إلا بالله ! امتى ياعم عبده ؟

ـ ليلة أمس .

ثم أخذ العجوز يجفف دموعه بكم جلبابه القديم وهو يقول :

ـ لست أعرف ماذا أفعل . إنهم يغسلونها الآن بالبيت ، والدفن سيكون بعد صلاة الظهر .

وأدرك محسن ماذا جاء بعم عبده إلى محله فى هذه الساعة المبكرة لكنه أدرك

أيضا أن عم عبده لابد سينتظر كثيرا حتى ياتيه زبون يفك أزمته فزبائنه مثل تلك السيدة الأنيقة التى لا يزال محسن يتذكرها لايأتون إلى المنطقة إلا فى الظهر فهم ليسوا مدرسين مثله يصحون من نومهم قبل ضوء النهار .

تذكر محسن الـ ٧٤ جنيها التى كان سيقبضها بعد قليل ، لكنه كان مدينا لعليوة البقال بأربعة جنيهات فقال لعم عبده :

ـ سأقبض راتبى اليوم ياعم عبده فانتظرنى وسأعود إليك بعد قليل بسبعين جنيها إلى أن يفرجها ربنا .

وانطلق محسن بأقصى ما يستطيع وسط طين الشارع ، بينما أخذ عم عبده ينادى عليه ويرجوه ألا يفعل ، بعد حوالى الساعة كان محسن يقبل على محل عبده صابر لاهثا ويدس لعم عبده السبعين جنيها فى يده ويرجوه أن يغلق المحل ويعود لبيته .

ومرت ثلاثة أيام انتهت فيها جميع مراسم الجنازة والدفن والعزاء لكن أحدا من زبائن عم عبده لم يدخل عليه المحل ليشترى شيئاً .

كان محسن قد دفع الجنيهات الأربعة لعليوة البقال فعاد يشتري منه «شكك» مرة أخرى بعد أن فرغ ما لديه فى البيت من جبن وزيتون وخبز ، ولم يشأ أن يدخل محل عم عبده خشية أن يتصور العجوز وسط حزنه على زوجته أنه يذكره برد السبعين جنيها .

لكن فى اليوم الرابع ، بينما كان محسن عائدا من المدرسة فى حوالى الرابعة بعد الظهر ، نادى عليه عم عبده وقال :

ـ لا مؤاخذة يابنى ! العين بصيرة واليد قصيرة .

فقال له محسن على الفور :

ـ لاداعى لهذا الكلام ياعم عبده ، مستورة والحمد لله .

فقال له العجوز :

ـ هذا هو حال شغلتنا . قد نبيع بمائة أو بألف جنيه فى يوم واحد ، وقد تمر أسابيع لانبيع فيها شيئاً .

أعرف ذلك ياعم عبده ، وأنا لم أطلب منك شيئاً .

لكن عم عبده وضع يده اليابسة على كتف محسن وقال له :

ـ تعالى معى يامحسن .

ثم قاده إلى داخل المحل .

كان محل عبده صابر يشبه سرداباً كبيرًا لا أول له ولا آخر فما إن تصل إلى حائط تتصور أنه نهاية المحل إلا وتجد ممرا آخر يقودك يمينا أو شمالا إلى حجرة تالية .

أخذ عبده صابر محسن من يده ومرَّ به من حجرة إلى أخرى حتى وصل إلى نهاية المحل وهناك أشار العجوز بإصبعة المرتعشة إلى الحائط الأخير وقال فى صوت جهورى لم يسمعه محسن منه من قبل وكأنه يعلن اكتشاف كنز :

ـ انظر !

ونظر محسن مليا إلى الحائط وسط الضوء الخافت فى آخر المحل إلى أن بدأ شيئا فشيئا يتبين ما أمامه ثم فغرفاهُ :

ـ ما هذا ياعم عبده ؟

ـ ألا ترى ؟

واتسعت عينا محسن وهو ينظر إلى لوح خشبى ضخم يرتكن إلى الحائط الأخير لمحل عم عبده . لم يكن محسن قد رأى فى حياته شيئاً بهذاالجمال ولا زخارف بهذه الدقة ولا نقوشا بهذه الروعة ، حتى خيل إليه أنه ينظر إلى شىء مسحور !

وتذكر محسن قول عم عبده له وهو صغير : إن كل قطعة عنده لها روح فأحس على الفور بروح هذه القطعة الفريدة تنبض أمامه بتاريخ الأجداد فتملأ المكان عظمة ومجدًا وجلالا .

ولاحظ عبده صابر أن محسن كاد يغيب عن الوعى وهو يحملق أمامه كالمخبول فقال له على الفور :

ـ إن ما تنظر إليه الآن هو « باب التوفيق » . إنه أقدم قطعة عندى فى

المحل . وانتظر عم عبده إجابة من محسن فلم ينطق بكلمة . ظلت عيناه تحملقان فى هذه القطعة الفنية النادرة فى صمت .

فقال له العجوز :

ـ هو أحد أبواب القاهرة القديمة . . انظر إلى النقوش إنها فاطمية . ويقال إن الذى بناه هو بدر الجمالى ، لكنى أعرف أن الذى بناه هو جوهر الصقلى بانى القاهرة نفسها .

ثم همس لمحسن وكأن معهما بالمحل من لايريدهم أن يسمعوه :

ـ لقد كان هذا هو البوابة الشرقية لقاهرة المعز وقد ان إكتشافه بمحض المصادفة أثناء بعض أعمال البناء التى كانت تجرى بمنطقة الدراسة عام ١٩٥٧ .

وأفاق محسن قليلاً ليقول لعم عبده :

ـ لكنى لم أسمع عن « باب التوفيق » هذا من قبل .

فردَّ عليه عم عبده :

ـ نعم الناس تعرف باب النصر وباب زويلة وباب الفتوح لكن ليسوا كثيرين الذين يعرفون « باب التوفيق» . ليسوا كثيرين الذين يعرفون تاريخ القاهرة كما نعرفها نحن الذين نعيش فى أحيائها القديمة .

سأل محسن :

ـ وماذا بعد اكتشافه عام ١٩٥٧؟

قال العجوز :

إن ما تم اكتشافه هو مجرد بوابة لها قبو من الحجر وعلى قمتها لوح حفر عليه بالخط الكوفى اسم « باب التوفيق » ، أما الباب نفسه بحلقه الخارجى والذى كانت تمر منه الجمال والخيول والأفيال فقد فقد إلى الأبد .

فسأل محسن :

ـ وماهذا إذن؟

فقال العجوز :

إن الباب الداخلى الذى كان يمر منه الناس . انظر هذا الحفر الدقيق كأنه صنع الأمس فقط رغم أن الأيدى التى صنعته قد تحولت إلى التراب منذ مئات السنين .

ورفع عم عبده بنانه فى وجه محسن وهو يقول :

ـ لقد بنى هذا الباب عام ٤٨٠ هجرية .

ثم طرق على الباب بقبضة يده اليابسة فأطلق الباب صوتا رنانا ذا رخامة وجلال ، فقال عم عبده :

ـ أتسمع صوته ؟!

وفكر محسن أن الخشب بعد ما يقرب من ألف سنة فإنه لابد قد جف حتى تحجر فاكتسب صوته تلك الرنة العجيبة التى لاتوجد فى الأخشاب الحديثة .

ودار عم عبده نصف دائرة حول الباب المسنود على الحائط الداخلى للمحل ثم قال لمحسن :

ـ إن هذا هو أكثر أبواب القاهرة القديمة بركة . لا أحد يعرف لماذا سُمّى «باب التوفيق» لكنى أنا أقول لك السبب فأنا أعرف عن هذه الأشياء أكثر مما يعرفه من يدرسون بالكليات : لقد سمى « باب التوفيق » لأنه يجلب التوفيق لكل من يدخله أما من يخرج منه . .

ولم يكمل العجوز جملته بل ضحك فازدادت تجاعيد وجهه واتسع فمه الذى سقطت الكثير من أسنانه .

قال محسن وهو لايزال مأخوذا بجمال الباب :

ـ لابد أنه يساوى كثيرا « باب التوفيق » .

فذهبت ضحكة عم عبده :

ـ ومالى بما يساويه ؟ هل سأبيعه ؟

ثم قال فى جدية وقد قطب حاجبيه :

ـ إنه تراث يا أستاذ ولقد ورثته عن والدى الذى ورثه عن حدى ولم يفكر أحد فينا فى أى يوم أن يبيعه . انظر إليه جيدا هل هذا يباع ؟

ثم نقل عم عبده نظرته من الباب إلى وجه محسن الذى كانت ماتزال تعلوه علامات الدهشة والانبهار وقال :

ـ إن الدولة تعرف هذا الباب جيدا .

ثم أضاف :

ـ لقد أخطرت هيئة الآثار بوجود هذا الباب عندى وشكلت لجنة جاءت وفحصت الباب لمدة ثلاث ساعات ونصف الساعة ووضعت عليه بعض المحاليل التى تركت عليه بعض البقع . انظر هنا فوق النحاس ها هى بقعة لعينة . ثم أرادت ان تقتطع منه « عينة » فرفضت . إن هذا الباب مثل أجدادى ! كيف يمكن أن تترك أحدا يأخذ عينة من وجه جدك أو من ذراعه ؟ لقد تعاركنا كثيرا وفى النهاية قالت اللجنة : إنه أثر ولايجوز المتاجرة فيه فقلت لها : « من قال إننى أقبل أن أتاجر به ؟ وبعد خناقة أخرى تدخل فيها بعض أبناء الحى لتهدئة الجانبين أخذت علىَّ تعهدا بأننى لن أبيعه .

وصمت عبده صابر قليلا فقال محسن وكأنه يحدِّث نفسه :

ـ إن «باب التوفيق» هذا هو أجمل ما رأيت فى حياتى .

فابتسم عم عبده وقال له فى نبرة آمرة :

ـ غدا الجمعة لن تذهب إلى المدرسة فاتفق مع بعض زملائك وتعالوا إلىَّ قبل الصلاة لتحملوا الباب إلى بيتك .

ونظر محسن إلى العجوز ولم يفهم .

ـ ماذا تقول يا عم عبده ؟

فقال له العجوز فى هدوء :

ـ أقول لك أن تحضر غدا من يحمل معك الباب . إنه ثقيل جدا وليس أقل من أربعة رجال أشداء يستطيعون إزاحته من مكانه .

ـ لكننى لا أستطيع أن آخذه يا عم عبده . . ثم لماذا ؟ لماذا آخذه ؟ إنه ملكك أنت ، هو جزء من محلك .

فاستطرد عم عبده دون أن يفقد هدوءه :

ـ لا لم يعد ملكى . قلت لك إننى لم أفكر فى بيع هذا الباب . لكن الحقيقة أن المرة الوحيدة التى لم أكن سأتردد فى بيعه هى منذ أيام قليلة ،لقد تمنيت بالفعل لو أننى لم أكتب ذلك التعهد للحكومة . كنت بالفعل أريد بيعه . فى هذه اللحظة بدلا من أن يدخل علىَّ زبون ليشتريه دخلت أنت على براتبك الذى فك علىَّ ضائقتى .

لكن محسن قاطعه :

ـ لا ياعم عبده إن هذا الباب لك ولا أستطيع أن آخذه أيا كانت الأسباب، إنه إرثك أبًا عن جد .

فابتسم عبده صابر من جديد وقال :

ـ لا يا محسن ، لقد تخليت عنه يوم وددت أن اكون قادرا على بيعه فلم يعد لى . إنه لك أنت ، فأنت الوحيد يامحسن فيمن أعرفهم الذى تستحقه لأنك تقدر قيمته . خذه يا بنى .

وبعد فشل المحاولات المستميتة التى بذلها محسن لإثناء عم عبده عن قراره انتقل الباب إلى منزل محسن عبد الفتاح فوق سطح العقار رقم ١٤ بحارة الدرب الأصفر بالجمالية .

الحركة الثانية : معتدل حالم

ظل محسن ينظر إلى الباب طوال الليل ، لم ينم فى تلك الليلة فقد استحوذ عليه « باب التوفيق » بزخارفه القديمة ، الغائر منها والبارز ، الدقيق منها والكبير . كانت به نجوم ودوائر ومثلثات . على أن أجمل ما كان فيه هو ذلك الخط العربى القديم الذى لم يفلح محسن فى أن يفك طلاسمه .

ومضت على محسن عبد الفتاح ساعات وهو يتأمل تفاصيل « باب التوفيق»

وخشى أن يجن من عشقه للباب كما يقال عن عم عبده إنه جن .

كان الليل قد انتصف حين قرر محسن أن ينصرف عن الباب ويأوى إلى النوم حتى لايفقد صوابه ولكن لم تمض ساعة واحدة حتى صحا محسن من نومه على صوت طرق على باب غرفته فلم يعرف إن كان يحلم أم إن هناك أحدًا بالباب .

طرق الباب من جديد فهب محسن من رقدته بعد أن تأكد من أن هناك طرقا بالفعل . نظر فى ساعته فوجدها الواحدة بعد منتصف الليل فجلس فى فراشه يتساءل عمن يمكن أن يكون هذا الطارق الذى جاءه فى تلك الساعة المتأخرة .

لم يكن محسن متعودا أن يزوره أحد فى غرفته فوق السطح ، هل يمكن أن يكون مكروه قد وقع لأحد من أفراد أسرته وجاءه مرسال يبلغه بما حدث ؟لكن ماهو ذلك المكروه ؟ هل حدث شىء لوالدته المريضة ؟ هل توفى أحد أقاربه ؟ لا ، لا يجب أن يتمادى فى مثل هذا التفكير .

طرق الباب من جديد ، فترك محسن فراشه بدون تفكير واتجه إلى باب الغرفة حتى يقطع الشك باليقين . أيا كان الخبر فهو أفضل من الدوران فى حلقة مفرغة من الظنون . فضّ محسن القفل والمزلاج اللذين كان يحكمهما كل ليلة قبل أن ينام وفتح الباب فلم ير أحدا وسط الظلام الدامس . . خرج إلى السطح يبحث عن ذلك الطارق الخفى الذى جاءه فى جنح الليل فلم يجد أحدا . تلفت حوله يمينا ويسارا ثم دخل غرفته وأغلق الباب من جديد .

ولم تمض لحظات حتى عاد يسمع الطرق من جديد . هذه المرة لم يتوان . انطلق لكى يلحق بهذا الطارق الغامض قبل أن يختفى مرة ثانية . فتح الباب بسرعة وصاح .

ـ ادخل !

لكن أحدا لم يدخل سوى البرد القارس الذى لفح وجهه بقسوة . لم يتلفت

هذه المرة يمينا ولا يسارا . أغلق الباب واحكم القفل والمزلاج وقرر ألا يفتح ثانية .

لكن قبل أن يصل محسن إلى فراشه سمع طرقا من جديد . لم يتحرك . أطرق السمع فخيل إليه أن الطرق آت من داخل غرفته وليس من خارجها .

وجد محسن أمامه مباشرة الباب القديم الذى أهداه إليه عم عبده فى الصباح . هل يمكن أن يكون الطرق قادمًا من « باب التوفيق » وليس من باب غرفته ؟

وسمع الطرق مرة أخرى . نعم إنه بلا شك « باب التوفيق » . نفس الرنة ذات الصوت الرخيم التى سمعها حين طرق عم عبده الباب بيده .

لم يخف ولم يندهش وكأنه شىء طبيعى أن يطرق الباب ، فكل الأبواب تطرق . ما الغريب فى ذلك ؟ ليس بالضرورة أن يكون الباب مسحورا لكى يطرق ، وليس بالضرورة أن يكون هو قد جن ليتصور أن « باب التوفق » يطرق داخل غرفته على سطح العقار رقم ١٤ بحارة الدرب الأصفر بالجمالية .

اتجه محسن إلى الباب القديم المرتكن إلى حائط غرفته وفتحه ثم خطا إلى داخله ونظر يمينا ويسارا يبحث عن الطارق فلم يجد أحدا ، فلم يندهش لذلك أيضا فهو لم يكن يتوقع أن يكون هناك أحد خلف الباب ، دار حول الباب واتجه إلى فراشه ، وقد ارتاح أن عرف مصدر الطرق الذى كان يسمعه واطمأن أنه ليس هناك على باب غرفته من جاء يبلغه بمصيبة أو بحادث فادح قد وقع وبمجرد أن وضع رأسه على الوسادة راح فى سبات عميق .

عندما صحا محسن من نومه كان أول ما استقبل به يومه الجديد هو تلك الابتسامة العريضة التى وجدها قد ارتسمت على وجهه . قام من فراشه وفتح شباك غرفته فاستنشق هواء الصباح المنعش وسمع زقزقة العصافير فى تلك الساعات الأولى الفاصلة ما بين الليل والنهار ، ونظر فى الأفق البعيد فوق أسطح المنازل القديمة المجاورة فرأى مئذنة الأزهر الشريف شامخة فى السماء تنادى بأذان الفجر ، بينما أخذت الشمس تنشر أولى أشعتها على الحى .

وشعر محسن عبد الفتاح ان حياته تبدأ من جديد .

اغتسل محسن بسرعة وصلى صلاة الفجر ثم بدَّل ملابسه وشرب الشاى وخرج من غرفته وهو يقفز فى رشاقة فوق سلالم الأدوار الثلاثة التى كان يتكون منها ذلك العقار القديم إلى أن خرج إلى الشارع .

لم يفكر محسن فى هذا الصباح فيما كان يشغل باله كل صباح وهو كيف سيدبر أموره إلى أن يتمكن عم عبده من رد راتبه الذى سلمه له فى بداية الشهر، ولم يفكر فى دينه لعليوه البقال الذى أخذ يتزايد كل يوم ، فقد بدت له شوارع القاهرة القديمة فى هذا الصباح آية فى الجمال . لم يعجب فقط بهندسة مبانيها الإسلامية القديمة التى أخذ يمر عليها الواحدة تلو الأخرى وهو يخرج من حارة الدرب الأصفر إلى ميدان الحسين ثم شارع الأزهر إلى شارع الجيش حتى باب الشعرية ، وإنما عجب أيضا لروح تلك المنطقة التى مازالت نابضة بالحياة منذ مئات السنين تحتضن مئات بل آلاف البشر جيلا بعد جيل .

حين وصل محسن إلى المدرسة استقبله البواب مهللا .

ـ صباح الخير يا أستاذ محسن وصباح الفل والياسمين .

فأجابه محسن مبادلا إياه الابتسام :

ـ صباح النور يا حاج عطية .

فمال عليه الحاج عطية يسرُّ إليه بشىء :

ـ لايفوتك ان تمر على عبود أفندى فى الخزينة لقد صرفوا لك منحة بسبب إشرافك على نشاط الطلبة فى حفل نهاية العام الماضى الذى حضره وكيل الوزارة .

وانشرح صدر محسن وهو يتلقى تلك الأخبار السعيدة من بواب المدرسة . فتلك المنحة غير المتوقعة ستسد فراغا كبيرا تركه غياب الراتب هذا الشهر فتقيم أوده أسبوعا آخر على الأقل ، أو حتى أياما إلى أن يفرجها ربنا ، لكنه حين وصل إلى الخزينة وجد أن المنحة أكثر من الراتب نفسه ١٥٠ جنيها ، خصم منها ١٦ جنيها ضرائب ودمغات وتسلم محسن . فى يده مائة وأربعة وثلاثين

جنيها بالتمام والكمال وكأنه تسلم هذا الشهر راتبين وليس راتبا واحدا .

وفى طريق عودته للمنزل بعد انتهاء المدرسة وعند مروره على دكان الحاج عبده صابر خرج إليه عم عبده يسأله عن أحواله ويعتذر له مرة أخرى عن تأخره فى رد السبعين جنيها التى استدانها منه :

ـ أنا على استعداد أن أبيع أى شىء بالمحل وبأى ثمن لكننى لا أجد الزبون .

وطيب محسن خاطر عم عبده وطلب منه ألا يشغل نفسه بهذا الموضوع فقد انفرجت الأزمة بتلك المنحة التى تلقاها اليوم ، ثم أكد له ألا يتردد فى طلب أى شىء إذا وجد نفسه فى حاجة .

كم هى جميلة الحياة حين لاتنهش عقل المرء وكيانه الحاجة المادية ! عاد إلى غرفته فاغتسل واستبدل ملابسه ونزل مرة أخرى إلى الشارع . اليوم يستطيع أن يدعو نفسه على العشاء بأحد المطاعم بدلا من الجبن القديم وبعض حبات الزيتون اليابسة التى كانت زاده الوحيد طوال الأيام الأخيرة مع ما قد يكون لديه من كسرات الخبز الجافة . بعد العشاء سيجلس بعض الوقت فى قهوة الفيشاوى التى كان يعشقها ، ويشرب شايا أو يدخن شيشة ويستمتع بجو المقهى القديم الذى كان يؤمه الكثير من المشاهير .

لأول مرة فعل محسن كل ما كان يريده دون أن يعترضه ضيق ذات اليد ، وحين عاد فى المساء إلى غرفته فوق السطح كان هانئ البال وما إن دخل الفراش حتى غلبه النوم .

ولقد وجد محسن بعد ذلك أن المدرسة ليست كريهة بالقدر الذى كان يتصوره ، رغم حيطانها الاسمنتية ولونها الرمادى الكالح ، فجميع الزملاء يبتسمون فى وجهه ، حتى الاستاذ فخرى مدرس اللغة الإنجليزية الذى كان دائما يراه عابسا ولا يتذكر أنه قال له فى يوم « صباح الخير » ، إذا به يقبل عليه وقد علت وجهه ابتسامة عريضة أظهرت أسنانه جميعا ولاحظ محسن لأول مرة أن على الجانب الأيمن سنتين ذهبيتين .

ـ مبروك ياأستاذ محسن المنحة . لقد كان اختيارا موفقا بالفعل . فلا أحد ينكر المجهود الجبار الذى بذلته وحدك فى الإعداد للحفل . فليحالفك دائما التوفيق .

وفى الفسحة تبعه تلامذة الفصل وهم يبتسمون ويتهامسون . وقبل أن يصل إلى غرفة المدرسين نادوا عليه :

يا أستاذ يا أستاذ !

ثم تحدث إليه أحدهم :

ـ أستاذ محسن . أيمكنك أن تحضر عيد ميلاد توفيق ؟

وقبل أن يجيب عليه محسن كان طالب آخر يقول له :

ـ إن عيد ميلاد توفيق يوم الخميس وقد دعا جميع طلبة الفصل لكنه لم يدع أحدا من الأساتذة إلا أنت وأبلة عزة . فهل يمكنك الحضور ؟

ونظر محسن إليتوفيق الذى لم يكن قد تكلم فوجد وجههقداحتقن خجلا .

ـ ولماذالم تدع بقية المدرسين ياتوفيق ؟

فقال توفيق متلجلجا :

ـ أنا أدعى المدرسين الذين نحبهم فقط .

كان محسن سيلبى تلك الدعوة بالطبع ليس فقط لأن عزة كانت مدعوة مثله ولكن أيضا لأنه كان يحب طلبته ويود أن يقيم معهم علاقات تتعدى باب الفصل وإن كان لم يكن يعرف حتى هذه اللحظة أنهم يبدالونه هذا الحب .

أما بالنسبة لعزة فإنه كان قد فقد الأمل فى أن تبادله الحب منذ أكثر من ثلاث سنوات ، كان بالطبع سيستمتع برؤيتها فى الحفل كما كان يستمتع برؤيتها فى المدرسة كل يوم لكنه لم يكن ينتظر أكثرمن ذلك .

لم يكن محسن يعرف أن عزة على العكس منه كانت تتطلع إلى هذا الحفل الصغير الذى كانا سيحضرانه بعيدا عن عيون بقية المدرسين ، وقد ارتدت له

خصيصا فستانا أزرق فى لون البحر كانت تدخره للمناسبات الخاصة ، ووضعت فوق عينيها ظل لونه أزرق خفيف اقام علاقة حواروانسجام مع الفستان ، وأكد سواد عينيها اللوزيتين وشعرها الهائج الذى تركته يتهدل دون أكتراث فوق كتفيها .

لم يكن محسن قد رأى عزة بهذا الجمال من قبل ، مجرد أن وقع نظره عليها نسى ماكان قد قاله لنفسه من أنه لاينتظر كثيرا من هذه المقابلة . فما إن واتته الفرصة حتى تقرب إليهافاحتضنته على الفور بعينيها دون أن تنطق ،ولم ينته الحفل إلا وكانا قد تواعدا على لقاء آخر .

كان ذلك فى صباح اليوم التالى مباشرة . . يوم الجمعة بقلعة صلاح الدين . كان يوما مشرقا خفت فيه البرودة وملأت الشمس الجو بضيائها الذى انعكس على خضرة الحشائش التى تحيط بالمكان فبعثت إحساسا بالسكينة والابتهاج .

وجد محسن فى نفسه شجاعة وثقة بالنفس لم يعهدهما من قبل فقرر أن يمسك بيد عزة وهما يتمشيان . لم تعترض بل أسلمت له يدها فى حنان وكأن ذلك حقه الطبيعى .

كانت ترتدى « بلوفر » أصفر فاتحًا فى لون عصفور الكناريا ، وكان وجهها يكاد يخلو فى هذا الصباح الصافى من المساحيق ، لكن شعرها الأسود الداكن لم يعرف لحظة سكون واحدة وسط النسمات الخفيفة التى ظلت تداعبه من اليمين ومن اليسار طوال فترة سيرهما فوق العشب الأخضر .

كم ودَّ محسن لو أنه أخذها فجأة فى أحضانه حتى يسكن هذا الشعر الهائج الذى ظل يشاغل عينيه كلما حاول تحويل نظراته بعيدا عن وجه عزة حتى لايسبب لها حرجا .

على بعد أمتار قليلة كانت هناك مجموعات من الأطفال يلعبون ويلهون وهم يتقاذفون بعض ثمار البرتقال كأنها كور للعب :

يا برتقال أحمر وجديد

بكرة الوقفة وبعده العيد !

يا برتقال أحمر وصغيّر
بكرة الوقفة وبعده نغيّر !

نظر محسن إلى زميلته بالمدرسة عزة توفيق التى أحبها فى صمت طوال أكثر من ثلاث سنوات فوجدها تنظر إليه هى الأخرى . لم تكن عيناها صامتتين ، كان فيهما من الأحاديث مالاتستطيع قوله الأفواه . أين كانت كل تلك السعادة مخبأة طوال السنوات الماضية ؟ كأن زمن الضيم قد مضى مابين يوم وليلة وجاء الآن وقت العيد والأفراح .

ظل ممسكا بيدها وهما يمشيان وكأنه يقتادها إلى مكان يعرفه . وظلت هى مستسلمة له وكأنها تعرف إلى أين يأخذها . عبر بها البوابة الكبيرة بعد أن قطع تذكرتى دخول ثم عاد يمسك بيدها داخل أسوار القلعة .

قابلا فوجاً سياحياً من النساء وقد وقفن كالتماثيل أمام مرشدة مصرية تتحدث فيهن عن تاريخ المكان بلغة لم يفهمها محسن ولا عزة. قال إنها أسبانية، بينما قالت عزة : إنها إيطالية ، وماهى إلا دقائق حتى بعُدَا عنهن . ومرت أكثر من الساعةوهما يتمشيان ويتحدثان . وأحس كل منهما أنه يعرف الآخر منذ زمن بعيد . قادتهما أقدامهما إلى بقعة نائية داخل أسوار القلعة غطت أرضها رمال صفراء ناعمة خالية تماما من أية علامات لأقدام البشر وكان أحداً لم يسبقهما إليها منذ عهد الأيوبيِّين .

وجدا نفسيهما وحدهما تماما وقد احتضنتهما مبانى القلعة التاريخية بأحجارها العملاقة تحميهما من كل متطفل ومتلصص .

توقف محسن عن السير وأحاط خصرها بذراعه فوضعت عزة ذراعها على كتفه . سحبها إليه فى رفق ثم أجلسها على الرمال الذهبية الملساء وقد أسندت ظهرها إلى سور القلعة الكبيرة .

كانت رعشة رقيقة قد بدأت تسرى فى أوصاله وشعر بلهفة شديدة تجاهها فاقترب منها بسرعة وأطبق على فمها بينما جاء صوت الأطفال عبر السور العالى :

ياوابور يامولع .

حط الفحم .

وأنا اقولَّك ولع .

حط الفحم .

وتغيرت حياة محسن عبد الفتاح ، أحس أنه يعيش حياة أخرى غير تلك التى كان يحياها .

لم تكن المسألة أنه وجد فى عزة الحب الذى كان يبحث عنه والحب قادر على تغيير نظرة الإنسان للحياة نفسها حيث تكتسب ذلك اللون الوردى الذى يزداد بقدر قوة الحب .

لم يكن هذا هو ما حدث لمحسن رغم قوة حبّه لعزة ورغم الحياة الوردية التى أصبح يحياها الآن . كانت المسألة أكبر من مجرد تغير نظرته للحياة . فما علاقة حبه لعزة بالعلاوة التى تقاضاها ؟ وكيف يؤدى تغير نظرته للحياة إلى أن ينال حب الطلبة وبقية العاملين بالمدرسة ؟ لا . إن الحياة نفسها هى التى تغيرت ، ولقد تأكد محسن من أنه يعيش الآن حياة جديدة عليه تماما .

كان ذلك هو ما أخذ يراود خاطر محسن وهو مستلق فى غرفته ينظر إلى «باب التوفيق » فى إحدى الليالى الدافئة بعد أن ولّت ليالى الشتاء القارسة التى طالما عانى منها والتى كثيراً ما منعته من النوم . كان الشتاء قد انتهى بلا رجعة وجاءت عزة بالربيع الذى سرعان ماازداد دفؤه حتى تحول إلى صيف حار .

عاش محسن مع عزة ثلاثة أشهر كاملة بعد انتهاء السنة الدراسية . فما إن بدأت إجازة الصيف حتى شعر كل منهما أنه تعود رؤية الآخر يوميا ولايستطيع العيش بدونه فأخذا يتقابلان كل يوم ماعدا يوم الجمعة حيث كان شقيق عزة الأكبر يأتى لزيارة أسرتها مع زوجته وأولاده الثلاثة فكان هذا اليوم يمر على محسن وكأنه دهر كامل . كان ينتظر بفارغ الصبر حتى يمضى اليوم بليله الطويل وتشرق شمس صباح الأسبوع التالى حتى يقابل عزة مرة أخرى .

لكن هاهى الإجازة الصيفية قد انتهت وسيعود المدرسون للانتظام بالمدرسة ابتداء من غد اسعداد لبداية الدراسة .

وبينما كان محسن راقدا فى فراشه فى تلك الليلة من شهر سبتمبر أخذ يتفحص تفاصيل الباب العظيم الذى أهداه له عم عبده صابر ثم نهض من مرقده واتجه إليه يتحسسه بيديه فوجد التراب قد بدأ يتراكم عليه فشعر بشىء من الذنب كيف جعلته حياته الجديدة يهمل « باب التوفيق » فلا ينظفه يوميا كما كان يفعل فى البداية ؟!

وعلى الفور أحضر محسن ريشة تنظيف أخذ ينفض بها التراب من فوق الباب الذى كان لايزال فى وضعه المستند على الحائط منذ أحضره إلى الغرفة قبل حوالى ثمانية أشهر ثم أحضر قطعة قماش أخذ يدعك بها المناطق الغائرة فى الباب ثم استدار إلى الجانب الخلفى للباب المواجه للحائط فوجده متربا أكثر من واجهته وحاول تنظيفه لكنه لم يستطع لضيق المساحة خلفه فدفع محسن الباب بيده فانفتح فخطا محسن خارجه وأكمل تنظيفه وأغلقه مرة أخرى ثم آوى إلى فراشه .

الحركة الثالثة : سريع متلاحق

فى صباح اليوم التالى صحا محسن عبد الفتاح قبل موعده ليجد آلاما مبرحة تضربه فى كل أجزاء جسمه تريد إيقاظه من نومه قبل موعده ، وشعر بريح باردة تندفع من النافذة التى كان الهواء قد فتحها عنوة أثناء الليل .

وماذا حدث ؟ هل حل الشتاء فجأة ؟ صحيح أننا فى الأسبوع الأخير من سبتمبر لكن الجو لاينقلب فجأة هكذا بين يوم وليلة .

حاول محسن أن يعود إلى النوم مرة أخرى بعد أن أغلق النافذة فلم يستطع . كان النوم قد ذهب بلا رجعة . ظل شاخصا ببصره إلى سقف الغرفة يعانى من الآلام التى فى جسمه ثم لم يجد بُدًّا من أن ينهض ويبدأ فى الاستعداد للذهاب إلى المدرسة .

كان هذا هو اليوم الأول الذى سيرى فيه عزة بالمدرسة بعد انقضاء الإجازة . كان متلهفا لرؤيتها فى المدرسة من جديد بعد أشهر الحب التى أمضياها سويا خلال العطلة الصيفية .

ترى كيف ستبدو ؟ هل ستظل كما كانت فى العام الماضى ؟ بالطبع لا . فى العام الماضى كانت عزة هى الحبيبة البعيدة المنال ، أما اليوم فإنها تعود للمدرسة ومعها شىء جديد ، شىء شاركا فى صنعه سويا طوال الأشهر الأخيرة ثم بشكل خاص خلال فترة الصيف حين كانا يتقابلان يوميا .

لكن حين وصل إلى المدرسة لم تكن عزة كما توقع . بدت كما كانت فى العام الماضى . كانت بعيدة وباردة رمقته بنظرة عابرة ولم تستطع نظرته إليها أن تأسرها . كأنه غير موجود ، أو كأن الحب الذى شاركا فى بنائه يوما بعد يوم غير موجود . ماذا حدث ؟

حاول محسن أكثر من مرة خلال اليوم أن يتحدث إليها لكنه لم يستطع فانتظر حتى نهاية الحصة الأخيرة وخرج مسرعا من المدرسة فى إثرها كان يعرف بالضبط طريق عودتها إلى المنزل عبر ميدان الجيش إلى شارع الأزهر حيث محطة الأتوبيس إلى بيتها بحى السيدة زينب . لحق بها بعد الميدان وقبل أن تصل إلى المحطة قبض بيده على ذراعها وأدارها إليه :

ـ ماذا حدث ؟ ماذا بك اليوم ؟

نظرت إليه نظرة فيها دهشة وغضب فى آن واحد وجذبت ذراعها بشدة من قبضته :

ـ كيف تجرؤ أن تمسك بى هكذا فى الطريق العام ؟ هل جُننت ؟

فانتقلت الدهشة إليه والغضب :

ـ إن لم يكن بيننا شىء فعلى الأقل هناك زمالة فى العمل فردت بسرعة :

ـ وهل تعطيك الزمالة حق أن تجذبنى من ذراعى فى الطريق العام ؟

ـ ماذا بك يا عزة ؟ ماذا حدث ؟

ـ لم يحدث شيء سوى أننى فكرت مليا فى كل شيء .

ـ متى ؟ بالأمس ؟ لقد كنا سويا يوم الخميس ولم أتركك سوى أمس الجمعة ، فما ذلك التفكير الذى جعلك تتغيرين هكذا بين يوم وليلة ؟

ردت عليه فى حدة :

ـ الذى جعلنى أتغير هو هذا الوضع الغريب الذى نحن فيه .

ثم واجهته وفى عينيها نظرة تحدٍّ :

ـ قل لى بربك ماذا سنفعل لتأمين مستقبلنا ؟ هل هناك أى أمل فى أن نتمكن براتبك وراتبى أن نبنى مستقبلاً ؟ ألم تفكر فى ذلك على الإطلاق ؟ هل كنت تتمتع بوقتك معى دون أن تفكر فى المستقبل ؟

وازدادت دهشته :

ـ إن هذا الوضع الذى تتحدثين عنه كان قائماً منذ البداية ، ومع ذلك أحببنا بعضنا ، فماذا تغيَّر ؟

لم تُجِبْ عن سؤاله ، أعطته ظهرها ، وأسرعت خطاها نحو محطة الأوتوبيس فلحق بها مرة أخرى .

ـ يجب أن نتحدث . ماذا حدث ؟ لقد تغيرت .

استدارت مرة أخرى ونظرت إليه نظرة لم يألفها فى عينيها من قبل .

ـ نعم قد تغيرت .

ـ هكذا بين يوم وليلة ؟!

كانت قد وصلت إلى المحطة ولمحت أتوبيسها يستعد للانطلاق فقالت له بسرعة وقد بدت عليها علامات الضجر :

ـ نعم بين يوم وليلة . كل شيء فى الدنيا يتغير بين يوم وليلة .

وفى ثوان كانت قد اختفت داخل الأتوبيس واختفى الأتوبيس فى زحام شارع الجيش .

وفى خطى بطيئة ومثقلة عاد محسن إلى بيته على سطح العقار رقم ١٤ بحارة

الدرب الأصفر بالجمالية وفوق كتفه حمل ثقيل لم يعرف كيف سوف يحمله فى الأيام القادمة .

على مدخل الحى قابل عليوة البقال جالسا أمام محلّه يتشاجر مع بعض زبائنه . قبل أن يحييه بادره عليوه بالقول :

ـ ألن تدفع ما عليك أنت الآخر ياسى محسن ؟ لقد انتظرت طويلاً لكنك لم تدفع ولا « مليم » ألم يأتك أى دخل طوال الأشهر الماضية ؟ولا أى دخل على الإطلاق ؟

فقال محسن على الفور حتى لايستمر هذا الحديث طويلا أمام الناس .

ـ أعطنى مهلة صغيرة ، عدة أيام فقط ، وسأدفع لك شيئا تحت الحساب .

فرد عليه عليوة :

ـ يفتح الله ! المهلة التى تطلبها ستنتهى غداً يا أستاذ وعليك دفع الحساب كله وإلا . .

وقبل أن يكمل قاطعه محسن بسرعة :

ـ نعم نعم غدا إن شاء الله .

فرد عليوه غير مبال بمحاولات محسن إغلاق الموضوع :

ـ وللتذكرة حسابك أصبح ٥٣ جنيها و٧٢ قرشا فقط لاغير .

فلم يجب محسن ومضى فى طريقه إلى البيت . لكنه عند مدخل شارع المعز وجد جمهرة أمام محل عم عبده صابر . وما إن رآه أطفال الحى حتى شاوروا عليه قائلين :

ـ هاهو الأستاذ محسن عبد الفتاح .

ـ الأستاذ محسن وصل .

فتقدم إليه أحد افنديات الحكومة الذين كان السكان قد التفوا حولهم وقال له مقطبا حاجبيه :

ـ أين « باب التوفيق » ؟

فقال محسن :

ـ لماذا ؟ ماذا حدث ؟

فسأله أفندى آخر وكأنه وكيل نيابة :

ـ أنت متهم بإخفاء الآثار . اتعرف عقوبة تلك الجريمة ؟

فقال محسن :

ـ إن عبده صابر . . .

لكن الأفندى الأول قاطعه :

ـ عبده صابر قد مات والناس يقولون إن «باب التوفيق» عندك أنت ، فإما إنه أخفاه عندك أو إنك سرقته وفى الحالتين . . .

فقال محسن فى دهشة :

ـ عم عبده مات ؟ كيف ماتِ ؟ متى ؟

ـ أين الباب ؟ قل لنا بسرعة أحسن لك . إننا لم نأت إلى هنا لكى نقص عليك قصة وفاة عم عبده .

وترقرقت فى عينى محسن دمعة لم يلحظها أحد وهو يقول :

ـ لقد كان حيا يرزق بالأمس فقط .

لكن صوت أفندى ثالث جاءه كالمدفع :

ـ أين « باب التوفيق » ؟

فقال محسن مستسلما :

ـ إنه عندى . فجاءه الصوت مرة أخرى :

ـ إنه ليس ملكا لك حتى تضعه عندك .

وانتقلت الجمهرة من أمام دكان عم عبده إلى حارة الدرب الأصفر فأخذت

تزداد مع كل خطوة جديدة حيث كان المارة يسألون : ماذا هناك ؟ وحين يسمعون القصة كانوا ينضمون إلى الجمع المتجه إلى بيت محسن عبد الفتاح لمشاهدة ما سيحدث هناك .

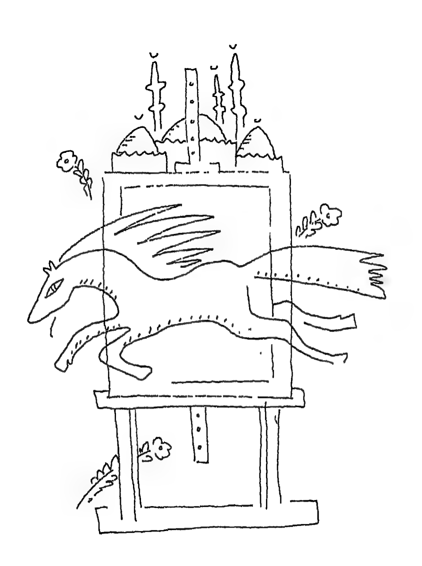
وأمضى محسن بقية اليوم يسلم «باب التوفيق» لمندوبى الحكومة ويكتب الإقرارات ويوقع الأوراق وسط جمهرة أهل الحارة وبعض سكان الحارات المجاورة . ولم ينفض المولد إلا بقدوم المساء فأغلق محسن على نفسه باب غرفته وارتمى فى الفراش بينما سمع من خلف النافذة صوت المطر الذى بدأ ينهمر معلنا حلول الشتاء .

وفى الفراش أخذ محسن يفكر فى حياته . ليست هذه هى الحياة التى كان يتطلع إليها . آماله فى الشباب لم يتحقق منها شىء . كان يحلم بالنجاح والحب والمال . . وها هو الآن قد وصل إلى الأربعين ولم يوفق فى أى منها .

رحيل جواد أشهب

مرثية فنان تشكيلى





ما أجمل أن يكون الرحيل فى الخريف بعد زوال ضجيج الصيف وحرارته وعودة الحياة إلى سكونها ودفئها الهادئ المريح . . حين يعود كل إلى داره سالما راضيا فيعرف الاستقرار ويخلد إلى الراحة .

صباح يوم من أيام الخريف رحل الجواد بعد حياة حافلة بالحركة والنشاط . . ما إن بزغت شمس النهار الجديد بعد ساعات الليل الطوال حتى رحل إلى حيث كان يتطلع طوال حياته : هناك . . فوق المآذن والقباب حيث السكينة الأبدية . . حيث الخلود . .

كان شابا فتيا دائم الترحال ، جاب جميع أرجاء الدنيا وركض فى كل اتجاه . لكن قلبه لم يكن يحمل إلا صورة واحدة : مشهد قباب المساجد ومآذنها التى ترتفع شامخة فى سماء القاهرة .

ولد فى حى القلعة القديمة وسط قطعان غفيره من الجياد ، لكنه كان مختلفا عنهم جميعا . . كانت الجياد من حوله بيضاء كالحة أو سوداء داكنة لكنه كان أشهب فيه بياض حالم كالسحاب وسواد مخملى كالليل وتزين جبهته غرة بيضاء كأنها التاج الملكى .

كان جوادا جامحا لايخفت له صهيل ولا تسكن له حركة . . فى دورانه المستمر كان يرسم دوائر متداخلة متكررة هى حلقات قباب مساجد السلطان حسن والحسين الشريف وجامع صلاح الدين . . دوائر لانهائية تخترقها خطوط رأسية هى المآذن الشاهقة المدببة كريشة الفنان .

لكن حقد بعض أقرانه من الجياد البيضاء الكالحة أو السوداء الداكنة كان يطارده فى كل مكان كالقطة الضالة ، وهو فى حركته الدائمة الدائبة لم يكن يعبأ لذلك . . كانت عيناه اللوزيتان الكحيلتان على جانبى غرته البيضاء الناصعة تتجهان دائما إلى أعلى حيث قباب المساجد التى ولد فى كنفها وأحبها ، حيث المآذن التى كانت تصعد به إلى العنان فى السماء .

كان دائما يتحدث إلى أبناء الحى الذين كانوا يتطلعون مثله إلى الارتفاع إلى حيث الزرقة والاتساع ولكنهم لم يكونوا يعرفون كيف يفعلون ذلك . . هو وحده الذى كان يعرف . . هو وحده الذى كان يستطيع أن يصعد على سرجه الجميل المطعم بالذهب والفضة إلى قمم المآذن . . إلى ظهر القباب .

لكن أقرانه من الجياد الأخرى البيضاء والسوداء لم تكن لتسكت على ذلك . . ألا يكفى أنه أشهب وهى كالحة أو داكنة ؟! هل سيتحول أيضا إلى معبود للناس يقودهم إلى تلك الأعالى التى يتطلعون إليها ؟! يجب أن يتم تقييده بالحبال حتى لايصعد إلى المآذن والقباب . . حتى لايرتفع بالناس إلى هناك . . إلى العنان فى كبد السماء .

لكن الجواد كان قويا فتيا فلم يقدروا عليه . . اكتفوا بمعايرته بشهبته البيضاء . . قالوا إنه لاهو بأبيض ولا بأسود . . قالوا إنه بين بين .

أما بين الناس فقد بدأ صيته ينتشر ويذيع . . بدأ أبناء الأحياء المجاورة يفدون إلى حى القلعة القديمة لينصتون إليه وهو يحدثهم عن قمم المآذن وعن ظهر القباب . .

وفى ليل بهيم بينما كان الجواد الأشهب نائما تسللت إليه بعض الجياد السوداء فلم يتبينها أحد فى جنح الليل ثم غرس أحدهم خنجرة المسموم فى كبده وفروا جميعا هاربين .

وفى الصباح بدأ السم يزحف على جسد الجواد فيصيبه على الفور بالهزال . ويفقده حركته ، ويذبل عينيه اللوزيتين ، فخر الجواد على الأرض غير قادر على الحركة . .

ثم جاءته الجياد البيضاء الكالحة فى وضح النهار فقيدته بالحبال وكممت فمه الذى توقف عن الصهيل وسرقت سرجه المطعم بالذهب والفضة .

وعندما شاهد أهل الحى سرج الجواد الأشهب يباع فى الأسواق بأبخس الأسعار أدركوا أنه لابد قد أصابه مكروه فهرعوا إليه ليروا ماحدث ، لكنهم حين وصلوا إليه كان قد فقد الوعى ولم يعد يدرى ما يجرى حوله . . فقط حين تعالى صوت بكاء الناس من حوله رفع جفنيه لأول مرة . . لكنه لم يرهم . . كانت عيناه قد فقدتا بياضهما الناصع وتحولتا إلى صفرة مريضة . . أحس بالناس من حوله دون أن يراهم . . حاول أن يتبينهم فلم يستطع . حاول مرة أخرى الفكاك من قيوده فلم يقدر . . حاول الصهيل فلم يصدر عنه صوت .

كم كانت معاناته وهو مقيد لايستطيع الحراك ، لايستطيع القيام . لايستطيع الصهيل ، لايستطيع الصعود . . وكم حزن الناس وقد فقد القدرة على أن يحدثهم ويحثهم على الصعود إلى قمم المآذن . . إلى أعلى القباب .

ومرت الأيام طويلة قاسية مريرة والجواد الأشهب فى مرقده والقيود تضغط على جيده الهزيل وتزداد إحكاما حول معصمه ، وعلى فمه ، وفوق عينيه . . وفى النهاية دون أن يفتح الجواد عينيه ودون أن يفتح فمه . . نظر إلى ربه وحدثه . . تضرع إليه فى خشوع . . رجاه بكل ماتبقى به من قوة أن يصعد به إلى السماء . . فهو لايستطيع أن يبقى طويلا طريحا على الأرض بعد أن عاش حياته كلها يتطلع إلى هناك . . فوق المآذن والقباب .

أمضى الليل بطوله يحدث ربه ومن عينيه الصفراوين انهمرت الأنهار غزيرة دافئة . . ومع فجر اليوم التالى كان قد ظهر على جانبى الجواد جناحان كبيران بدأ يتحركان فى بطء إلى أعلى وإلى أسفل . . إلى أعلى وإلى أسفل . حتى ارتفعا بجسده الهزيل عن الأرض شيئا فشيئا . . وماهى إلا لحظات حتى كان هناك : فوق قمم المآذن . . وفوق ظهر القباب .

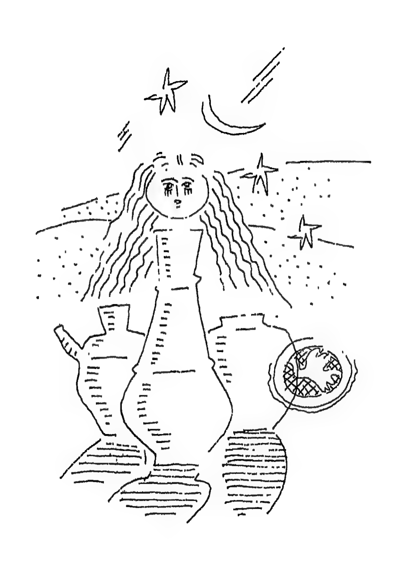
وفى الصباح شاهده الناس بين السحب فى السماء يصهل بين المآذن ، يطير فوق القباب ، وقد التمع جسده تحت أشعة شمس الخريف الهادئة . . كان يشع على الأرض ضوءا نورانيا نادرا . . أخذ يمطر المآذن والقباب بالورد

والزهور والرياحين من كل نوع ولون . وتوافد أبناء الأحياء فى الساحة ليشاهدوا جوادهم الأشهب مشدوهين . بمنظره فى السماء وهو يضرب . بجناحين فيبدو وكأنه البراق ، وقد ارتسمت على وجوههم علامات الثقة بأنهم ، رغم كل الصعاب . سيتمكنون هم أيضا من التحليق مثله فى يوم من الأيام هناك حيث لن يطولهم ولايطاولهم أحد . . هناك : فوق قمم المآذن . . فوق ظهر القباب .



الفـواخـير





فى منطقة الفسطاط خلف جامع عمرو بن العاص تمتد مساحة تملؤها أبنية طينية ذات معمار بدائى نصف كروى . تلك هى أفران حرق الفخار التى تعرف لأهل المنطقة باسم الفواخير . وأقدم فواخير الفسطاط جميعا هى فاخورة عم صالح .

ولد عم صالح قبل أكثر من ثمانين عاما ، أو ربما من ألاف السنين ، فقد شب أبناء الفسطاط ليجدوا عم صالح عجوزا كما هو الآن .

لم يذهب عم صالح إلى المدرسة ولم يتعلم القراءة والكتابة ولم يمارس فى حياته أى صنعة أخرى سوى تلك التى وجد أباه يمارسها فى النهار ويقص عليه فى المساء كيف كان أجداده جميعا بالفسطاط يمارسونها .

لذلك فقد أمضى عم صالح سنوات حياته كلها يصنع الأوانى والقلل والأزيار والقِدّر حتى صارت يداه تشبهان فى لونهما الطين الذى يصنع منه الفخار وتماثلان فى خشونتهما ذلك الطين بعد أن يحترق داخل الفواخير فيصير صلبا .

كانت الفسطاط وفواخيرها هى حياة عم صالح كلها والآن كان عليه أن يتركها لكى يقام مكانها مشروع إسكانى حديث من المساكن سابقة التجهيز .

لم يكن عم صالح يعلم أن تلك المنطقة شهدت صناعة الفخار منذ أقدم العصور وأن الطريقه التى يستخدمها فى صناعة الفخار مصورة على جدران مقبرة أحد الأمراء فى سقارة فهى نفس الطريقة التى كان يستخدمها أجداده الفراعنة أول من عرف صناعة الفخار فى التاريخ الإنسانى .

لم يكن عم صالح يعلم أن القطع الأثرية القديمة المبعثرة فى الفسطاط هى بقايا ازدهار لم يسبق له مثيل فى صناعة الفخار خلال العصر الإسلامى الذى تبوأت فيه مصر مكان الصدارة فى إنتاج الفخار فغمرت العالم الإسلامى بأنواع الخزف الفاخر والخلاب بما حوى من زخارف ونقوش فنية دقيقة وأشكال هندسية رائعة ومتنوعة .

لم يكن عم صالح يعلم أن تلك الصناعة البدائية التى أعطاها حياته كما أعطاها جدوده حياتهم من قبله هى أقدم الصناعات اتصالا بتاريخ المدنية الإنسانية وإنها لذلك تعتبر المقياس الحقيقى الذى يتخذه المؤرخون لقياس مدى تقدم أى من الحضارات الإنسانية القديمة .

لكن عم صالح بالرغم من ذلك كان يملؤه شعور فطرى بالأهمية التاريخية لهذا المكان الذى ولد به وعاش طوال حياته ، كما كان يشعر أنه هو نفسه امتداد لتقليد عريق وعظيم ، وبأن كل من عاش قبله على هذه البقعة من الأرض كان يفعل نفس ما يفعله هو بهذا الطين الطيب الذى يتحول بين يديه إلى آيات فى الجمال .

كان ذلك كله يملأ عم صالح شعورا بالاعتزاز الصامت الذى لايعبر عن نفسه إلا من خلال ابتسامة رضا كلما أبدى أحد الزائرين إعجابه بأحد أعمال يديه وبالرحلة التى تقطعها من تراب يخلط بالماء فيصير عجينة لينة ثم يوضع على عجلة عم صالح التى يديرها بقدميه الحافيتين ، فيتحول من كتلة مكورة إلى إناء للماء أو وعاء للأزهار ، ثم يدخل الفاخورة ويحكم عليه الإغلاق ليخرج فى اليوم التالى فخارا بديعا يتحدى الأزمان .

لذلك لم يستطع عم صالح أن يتقبل فكرة هجرة الفسطاط والعيش فى مكان آخر بعيدا عن هذه الفواخير التى كانت كل فاخورة منها تملؤه شعورا بالفخر والفخار ، فقد كانت كل فاخورة بالنسبة لعم صالح أثرا تاريخيا ورثه عن أجداده الذين ورثوه عمن قبلهم ، لكنه لم يكن أثرا ميتا ، وإنما أثر ينبض بالحياة لأنه مازال ينتج نفس أعمال الخزف التى كان ينتجها منذ أقدم العصور.

وقد حاول عم صالح مرارا أن يقنع خفير المنطقة الذى أبلغه رسميا بأمر الإخلاء أن من الخطأ هدم الفواخير ووقف صناعة الفخار ، لكن الخفير كان يطلب منه سيجارة ويستمع إليه حتى ينتهى من السيجارة فيقذف بها على الأرض ويضغط عليها بنعل حذائه الميرى فتغوص فى ذلك الطين البنى اللون وينطفئ وميضها ثم يمضى ويترك عم صالح وحيدا مع قلقه على مصير الفواخير ، ذلك القلق الذى لم يعد يترك له لحظة راحة واحدة .

لكن عم صالح لم يكن ليقبل فكرة هدم الفواخير بهذه البساطة ، لذلك قرر أن يذهب ولأول مرة فى حياته إلى قسم الشرطة ليشرح لهم الأهمية الأثرية لفواخير الفسطاط ، وقد كان يسمع كثيرا عن اهتمام الحكومة بالسياحة فقرر أن يحكى لهم كيف أن جموع السياح كثيرا ما كانت تتوافد على هذه المنطقة التى أخرجت مئات الملايين من قطع الخزف الفنية على مدى العصور ، وكان ينوى أن يقص على المأمور نفسه قصة أستاذ الخزف الفرنسى الذى أمضى مع عم صالح ثلاثة أيام كاملة فى الفسطاط يسجل مختلف خطوات عمله فى مفكرة صغيرة بينما كان أحد المصورين يلتقط له ولأعمال الفخار التى يصنعها بيديه مئات الصور .

لكن عم صالح لم ينجح فيما كان يعتزم أن يفعله ، كان الضباط بقسم الشرطة دائما مشغولين بأشياء أخرى يبدو أنها أكثر أهمية من مشكلة عم صالح ، مثل عمل محضر لأحد الأزواج لأنه اعتدى على زوجته بالضرب أمام الجيران الذين حضروا للقسم للشهادة ، أو تحرير محضر مخالفة لبائع متجول كان يفترش أحد الأرصفة ليبيع ثمار الحنضل المر أو إيداع حرامى قبض عليه فى الأتوبيس فى التخشيبة .

وبعد أن تكرر ذلك المرة وراء الأخرى قرر عم صالح فى النهاية أن يذهب إلى المحافظ الذى قيل له إنه هو « حاكم المدينة » ولأن الحاكم لابد أن يهتم بأمور رعيته فقد قرر عم صالح أن يعرف المحافظ أن هناك ٢٥٠ عائلة تعيش الآن فى منطقة الفسطاط وتعمل بالفواخير وأن إزالة المنطقة ستشردهم ، وإن

بعضهم لن يستطيع أن يعمل عملا آخر .

كان سيقول للمحافظ إنه هو شخصيا لايستطيع أن يترك هذه المنطقة التى ولد بها وقضى بها كل حياته صبيا يتعلم الصنعة من أبيه ، ثم شابا يعول عائلته بعد وفاة والده ، ثم أبا يعلم ولديه حسين وعبد الحميد نفس الصنعة ليخلفاه بعد وفاته فخارين عظيمين كما كان أجدادهم جميعا .

كان سيقول للمحافظ إنه لم يترك منطقة الفسطاط فى حياته إلا مرات تعد على أصابع اليدين ، وكان ذلك لزيارة ضريح السيدة زينب أو الحسين أو بعض الأولياء الصالحين ، وإنه لايستطيع العيش خارج ذلك البيت الطينى الذى يسكنه والذى صنعه بنفسه كما يصنع الأوانى الفخارية .

كان سيقول للمحافظ باختصار إنه لن يقبل أن يترك الفسطاط لأنه لايعرف غيرها وإنه كلما نزل إلى القاهرة خشى أن يضل الطريق .

ولأن عم صالح كان صادقا فى كل ما كان يعتزم أن يقوله للمحافظ بما فى ذلك أنه فى القاهرة يضل الطريق فإنه لم يصل قط إلى المحافظ ، فهو لم يكن يعرف عنوانه وعندما سأل عنه لم يستطع أن يستدل عليه رغم أن الكثيرين ممن سألهم كانوا يقولون له باستهزاء : بقى متعرفش المحافظة فين ياراجل أنت ؟!

وعاد عم صالح إلى الفسطاط مهموما لايعرف ماذا يفعل ، كان ينظر للفواخير من حوله فيشعر بالارتياح . كان ينظر للتراب الأحمر تحت قدميه ويتأمل نعومته الفريدة ويقول لنفسه : لو جاء هؤلاء الذين أصدروا أمر الإخلاء إلى هنا لغيروا رأيهم على الفور لأنهم سيكتشفون أن الطبيعة قد خلقت هذا المكان خصيصا لصناعة الفخار ، فالتراب هنا يختلف عنه فى أى منطقة أخرى ، هنا هو نقى وناعم لامثيل له ، وقد فجرت الطبيعة بئرا فى هذا المكان ليكون وسيلة الفخارين فى خلط التراب بالماء حتى يتحول إلى تلك العجينة الحمراء النادرة والتى إليها يرجع السبب فى أن فخار الفسطاط يختلف عن أى فخار آخر فى العالم .

لو جاء أحد هؤلاء إلى هنا لكان عم صالح قد سأله أين يعتزمون نقل

صناعة الفخار من هنا ؟ هذه الصناعة العظيمة التى لم تتوقف منذ فتح عمرو ابن العاص مصر ، بل ومنذ أيام الفراعنة القدماء ؟ كان سيسألهم وعندئذ كانوا سيحارون .

وكما لم يستطع عم صالح الوصول إلى المسئولين فإن أحدا منهم لم يأت إلى الفسطاط ، ومع مرور الوقت بدأ عم صالح يهدأ قليلا وبدأ ينعم بالنوم لفترات أطول مما كان يفعل فى بداية إبلاغه بقرار الإخلاء ، فقد مضت الأيام ثم الشهور ، لكن الإخلاء لم يتم ، وبدا وكأن المسألة كلها كانت حلما مزعجا أو خبرا كاذبا أو مشروعا حكوميا من تلك المشاريع التى تقتلها البيروقراطية والروتين فلا ترى النور قط .

وعاد عم صالح إلى هدوئه القديم وبدأ يواصل عمله فى الفواخير بهمة ونشاط ، كان يرى الطمى فى كل صباح بلونه الأحمر القانى أجمل مما كان من قبل ، وكان يرى مئات الأوانى الفخارية ، وهى تخرج من الفواخير بعد أن سوتها حرارة النار فأخذت تتوهج وتصيح بأنها حية تعيش .

وفى يوم مشرق جميل بينما كانت منطقة الفسطاط تنعم بهدوئها المعهود ثارت فجأة الأتربة أمام عينى عم صالح الذى ترك قطعة الطين التى كان يشكلها على عجلته وخرج ليرى سبب ثورة الأرض وهياجها .

وهناك وسط الأتربة الحمراء الهوجاء رأى عم صالح قافلة الخبراء الأجانب والمهندسين مسئولى الشركة الأجنبية الذين جاءوا يعاينون الموقع الذى ستقيم عليه الشركة مشروعها .

وانقبض صدر عم صالح فى البداية ، لكنه عاد يقول : ربما يكون وجودهم هنا خير وسيلة لإطلاعهم على الخطأ الفاحش الذى ينطوى عليه قرار إزالة هذه المنطقة من الوجود ، فهؤلاء القادمون هم بلا شك الذين بيدهم الحل والربط وهاهم قد جاءوه إلى عنده وهذا ماكان يتمناه عم صالح .

وبدأ عقل عم صالح يستعيد الحجج التى كان قد نسى بعضها بعد أن تصور أن المشروع قد ألغى فتذكر بعضها ولم يتذكر البعض الآخر . لكنه على

أى حال سيقول لهم إن تلك منطقة تحمل فى جوفها الكثير من بقاياالتاريخ التى كان يجدها بنفسه كلما حفر فى الأرض . كان عم صالح يعلم أن الأجانب يقدسون الآثار ، أو على الأقل الأجانب الذين كانوا يأتونه بالفسطاط . ولذلك . فهم لن يقبلوا فكرة أن تدق فيها الأساسات أو أن تمتد تحتها مواسير المجارى .

وكان يعلم أيضا أن السائحين الأجانب كانوا يكنون له احتراما خاصا ، أو على الأقل الذين كانوا يأتون للفسطاط ، فكم من مرة طلب منه سائح أجنبى أن يمكث مكانه حتى يلتقط له الصور ، وكم من مرة كانت السائحات تصحن « رامسيس! رامسيس » كلما شاهدنه وشاهدن الشبه بينه وبين مومياء رمسيس الثانى الراقدة بالمتحف : نفس اللون البنى القديم الذى يشبه لون الطين الجاف ، ونفس الأعين الغائرة ، ونفس الملمس الذى يشبه لحاء الأشجار الواعرة فى القدم .

جرى عم صالح إلى النقطة التى توقف عندها موكب السيارات والتى تحولت على الفور إلى بقعة من الألوان الزاهية اخترقت لون الفسطاط البنى الممتد . كانت السيارات ألوانها زرقاء وصفراء ، نسى عم صالح شيخوخته وأخذ يقفز كشاب فى العشرين حتى وصل بسرعة إلى الموكب وتقدم على الفور يحيى الضيوف الأجانب الذين نزلوا من السيارات .

لم يكن عم صالح يعرف لغتهم لكن جميع السائحين الذين كانوا يتوافدون على الفسطاط كانوا يفهمون عم صالح كما كان هو يفهمهم .

وعلى الفور تقدم إلى عم صالح أحد الموظفين المصريين العاملين بالشركة وكان يرتدى جاكت كاروهات كالتى يرتديها الأمريكان ، وقال له أن يفسح الطريق للخواجات .

لكن عم صالح لم يلتفت إليه ، بل تقدم مباشرة إلى أحد الخبراء الذى شعر بأهميته من مجموع المحيطين به منذ نزل من سيارته الفاخرة التى لاحظ عم صالح أن بها تليفونا بالداخل .

وكان عم صالح يحمل معه مصفاة قلة قديمة نقشت عليها زخارف كثيرا ماسحرت السياح الأجانب ، وتشجع عم صالح وقدم قطعة الفخار القديمة للرجل الأجنبى لكن لفرط دهشتة أزاح الأجنبى يدعم صالح التى كانت فى لون الطمى وكأنه يبعد عنه الطاعون ، كان القرف باديا على وجه الرجل الأجنبى الذى لم يفهم ماهذه القطعة المكسورة من الفخار التى لابد تحوى الكثير من الجراثيم .

وعلى الفور هجم الموظف المصرى الذى يرتدى الجاكت الكاروهات على عم صالح وقال له :

جرى إيه ياراجل أنت؟ أنت عايز تودينا فى داهية ؟ إية اللى أنت بتهببه ده؟ إيه القرف اللى أنت بتديهوله ده ؟ حد قالك هو عايز البلاوى بتاعتك دى؟ .

وأخذ الموظف تلك القطعة المكسورة من الفخار ذات الزخارف الإسلامية القديمة وقذف بها بعيدا ، وكأنه لايريد لعينى الرجل الأجنبى أن تقعا عليها ثانية .

ولم يعرف عم صالح ماذا يفعل فحاول أن يقول لابن بلده المصرى إن تلك هدية أثرية يريد إهداءها للبيه الخواجه ترحيبا بقدومه إلى هذه المنطقة ، لكن الموظف قاطعة قائلا :

أنت عارف مين ده ياراجل يا مغفل أنت ؟ ده مدير الشركة نفسه جاى من بلاد بره علشان يعاين المنطقة بس وراجع تانى بكرة الصبح بالطيارة .

فقال له عم صالح إنه كان يريد أن يقابل هذا المدير منذ شهور فليساعده فى ذلك وهو لن يأخذ من وقته كثيرا فرد عليه الموظف بسرعة :

تقابل مين ياراجل يامخبول أنت ؟ ده الوزير كان عايزيقابله والراجل لسه مش قادر يحدد له « ميعاد » علشان وراه مصالح كثير فى بلاده هناك . الناس دول وقتهم بفلوس مش قاعدين زيكم هنا تتشمسوا .

وحاول عم صالح مرة أخرى أن يشرح له الموضوع لكن الموظف أزاحه بقوة من أمام المدير الأجنبى قائلا له :

أوعى كده أمال !

لكن عم صالح لم يكن ليترك هذه الفرصة تمر دون محاولة أخرى فها هو الخطر ماثل أمامه حقيقة مؤكدة وليس كما كان من قبل قرارا شفهيا لايدرى مدى صحته ، وهاهى الفرصة سانحة أمامه لكى يحاول إثناء هؤلاء الناس عن عزمهم على هدم المنطقة .

وعلى الفور قال عم صالح للموظف أن يدعو البيه الخواجه « ليشرب عندنا الشاى » فهذا الطلب لا يمكن أن يرفض مهما كانت الفلوس التى يساويها وقت هؤلاء الأجانب . إن تلك هى أصول وكرم الضيافة .

ولم يحتمل الموظف أكثر من ذلك فقال لعم صالح :

إذا ماكنتش حاتمشى من هنا ياراجل أنت حانده لك البوليس !

ولاحظ أحد المعاونين مايجرى فاقترب منهم سائلا :

إيه الحكاية فيه إيه ؟

فتقدم إليه عم صالح على الفور وشرح له الموضوع بصراحة ولكن فجأة وكأن الرجل قد لدغته عقربة انفجر المعاون فى عم صالح :

يانهار أسود! أنت عايز توقف المشروع ؟ الحكومة ماصدقت أن الشركة قبلت تنفيذ المشروع ، عايز تيجى إنت تقنع الخواجه أنه مشروع فاشل ؟ ده أنت تتحاكم على كده . أنت بتعمل ضد مصلحة البلد !

لكن عم صالح قال له على الفور :

يا سعادة البيه الفواخير دى غالية قوى . دى أثر قديم نفتخر بيه ، كل فاخورة من دول عمرها كثير قوى .

لكن المعاون دفع عم صالح بقوة فى كتفه قائلا :

إبعد ياراجل أنت من هنا فواخير ايه وهباب إيه !

فوقع عم صالح على الأرض .

بقى عم صالح وحده على الأرض وسط التراب ومضى الموكب بعيداً. تشنجت أصابعه اليابسة وهى تقبض على التربة ، واتسعت فتحتا أنفه وهما تشمان رائحة الطمى ، وأطبقت جفونه فى نشوة لم يكن ليفهم لها سببا إلا من عرف الحياة الطويلة التى عاشت فى عم صالح والتى قد وصلت اليوم إلى نهايتها ، فعندما عاد الموكب مرة أخرى إلى حيث وقفت السيارات كان وميض عم صالح قد انطفأ فى التراب مثل سيجارة خفير المنطقة دون أن يلحظ ذلك أحد .

كونشرتو النـاى





تفتح على الحياة فوجد نفسه مغروسا فى طين مصر الأسود على ضفاف النيل بأعالى الصعيد ، فقد كان أحد أعواد الغاب الذى يكثر نموه فى تجمعات كثيفة على ضفتى النهر . . لكنه كان أجمل من بقية أعواد الغاب المحيطة به . . كان عوده طويلا مفتولا وعقلاته رشيقة متناسقة . .

ولقد أمضى فى البداية حوالى ثلاثة أشهر لينا أخضر اللون ، ثم سرعان مالفحته شمس صعيد مصر الحارقة ، فبدأ يقوى عوده ويصفر لونه فازداد جمالا بعد أن استبدل ليونته الخضراء بتلك الصلابة الصفراء ذات اللمعة الملساء .

كان موضع فخر وإعجاب الجميع . . كانت الطيور البرية تعود أدراجها لتلقى نظرة ثانية على عوده الأملس اللامع قبل أن تستأنف رحلتها الطويلة فى موسم الهجرة للشمال . . وكانت الحيوانات المائية والأسماك تسبح بالقرب منه أو تقذف بنفسها خارج الماء لتستقر عند قدميه حتى تتمكن من النظر مليا إلى عوده الفارع قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة .

لكنه لم يكن يعير ذلك اهتماما ، فقد كان يداخله يقين قوى بأنه خلق لحياة أخرى غير تلك الحياة الريفية المتخلفة التى وجد نفسه فيها .

كان يتطلع للذهاب إلى القاهرة مثل أقاربه متيسرى الحال الذين يطلق عليهم اسم الغاب الفارسى والذين يتم تربيتهم فى مزارع خاصة وبعناية فائقة ليرسلوا بعد ذلك إلى المدينة حيث تصنع منهم أدوات صيد الأسماك . . أو مثل أقاربه الآخرين ذوى الأعواد السميكة الذين يطلق عليهم اسم « البامبو »

والذين تصنع منهم أثاثات المنازل وأدوات الديكور .

غير أن طموحاته هو كانت تفوق كل ذلك . . فهو لم يكن ليقبل أن يتحول إلى عود للصيد يتدلى منه خيط من النايلون فى الماء وأن يظل يتقوس عوده مابين جذب إحدى الأسماك البكماء وقبضة يدى رجل عجوز يرتدى قبعة بيضاء ويجلس على شاطئ بالإسكندرية .

ولم يكن ليقبل أن يتم طيه وليه ليتحول إلى كرسى يريح عليه أحد الآدميين الجهلاء مؤخرته .

كان يرفض هذا وذاك بمثل ماكان يرفض وقفته الحالية فى شمس الصيف الحارقة وفى أمطار ورياح الشتاء العاتية . لا ليس هذا ما خلق له هذا العود الجميل من الغاب .

كان يعلم فى قرارة نفسه أن أحد أمهر صانعى الآلات الموسيقية فى القاهرة سيتولاه فى يوم قريب برعايته ليصنع منه نايا متفردا وسط بقية نايات البلاد تفرده هو وسط بقية أعواد الغاب المحيطة به ، نايا لم ير أحد له مثيلا ، نايا يملأ الأفق بألحان شجية سيسمعها الناس لأول مرة ، نايا يستلقى داخل علبة سوداء مستطيلة كعلب الآلات الموسيقية المكسوة من الداخل بالقطيفة الحمراء أو بالجوخ الأخضر حيث يتم ادخاره لمناسبة عظيمة .

فهذا الناى هو الذى سيتم اختياره من بين آلاف النايات الأخرى لكى يعزف عليه أول كونشرتو يتم تأليفه للناى الشرقى الذى لم يدخل الأوركسترا السيمفونى بعد ، وسيقدم هذا الكونشرتو لأول مرة فى حفل كبير فى دار الأوبرا يحضره جميع عظماء البلاد من رجال المال والسياسة والثقافة ونجوم المجتمع .

فى هذا الحفل ستتركز أنظار الحاضرين جميعا ليس على الأوركسترا السيمفونى وليس على عصا المايسترو الأجنبى الذى سيحضر من أوروبا خصيصا لكى يقود الأوركسترا فى هذا العمل الفنى الكبير والأول من نوعه فى تاريخ التأليف السيمفونى ، وإنما على ذلك الناى الفريد الذى لم يسمع أحد أنغامه من قبل ، وسيكتشف خبراء الموسيقى السيمفونية أنه لا يختلف فى شىء

عن بقية ألات النفخ الخشبية الغربية كالفلوت والكلارينت والأوبوا والباسون .

لذلك فقد كان كلما نظر إلى البيئة الريفية المحيطة به ووجد الطمى الأسود أسفل قدميه والحيوانات المائية الصغيرة اللزجة والقواقع النيلية القبيحة تحوم حوله أصابه الغثيان .

لقد سمع من أحد العلماء الذين جاءوا تلك المنطقة ليأخذوا منها بعض عينات من الطمى أن هناك أكثر من ٣٠ مليون نوع مختلف من الكائنات العضوية الدقيقة كالبكتريا والفطريات فى كل جرام واحد من التربة الزراعية فكيف يمكنه هو الذى سيصبح نايا فريدا عما قريب أن يعيش وسط تلك البيئة الموبوءة .

لم يكن يحادث أحدا ولم يكن يستمع لأحد ، فقد كانت الأصوات التى تجيئه فى هذه المنطقة كلها نشازا ولاتحتمل، سواء كانت أصوات أعواد الغاب المحيطة به والناتجة عن تخبطه فى بعضه البعض أو أصوات الضفادع وصراصير الحقل فى المساء والتى كانت كثيرا ماتحول دون أن يغمض له جفن .

لم يكن يستمع إلا لتلك الأصوات التى بداخله والتى لم تكن ألحانا شعبية بلهاء كتلك التى يرددها أهل المنطقة ولكنها كانت ألحان كونشرتو عظيم كتب للناى والأوركسترا .

لم يكن مؤلف الكونشرتو قد كتبه بعد لكنه هو كان يحفظه عن ظهر قلب. كان يعلم أنه سيبدأ بمقدمة طويلة للأوركسترا تكفى للإعداد لدخوله . فالناى الذى طال انتظار مشاركته فى الأوركسترا السيمفونى لايمكن أن يدخل بعد ثوان قليلة من بداية الكونشرتو كما يحدث للكمان المسكين فى كونشرتو سيبليوس الشهير أو كونشرتو مندلسون .

وسيكون دخوله مفاجأة غير متوقعة حيث سينتظر البعض أن يعزف ألحانا شرقية كتلك التى تعود الناس سماعها من الناى، لكن ألحانه ستجيئ غربية خالصة وسينسى الجمهور بعد قليل أنه يستمع إلى كونشرتو مصرى لآلة من آلات التخت الشرقى، سيتصور الجميع أنهم يستمعون إلى كونشرتو

«الإمبراطور» لبتهوفن لأن عزفه سيكون بهذه العظمة أو إلى أحد كونشرتوات «براند نبرج» لباخ لأن أنغامه ستكون بهذه العذوبة .

وكونشرتو الناى الذى كانت حركاته الثلاث مكتملة فى مخيلته لم يكن كونشرتو مائعا مثل تلك الكونشرتوات التى ألفها شوبان للبيانو والتى تتداخل فيها ألحان البيانو مع ألحان الأوركسترا حتى يكاد يذوب الواحد فى الآخر . فتلك الألحان كانت تذكره بأصوات الناى البلدى التى كثيرا ما كان يسمعها من بعض العازفين الريفيين من أهالى المنطقة الذين كانوا يمرون عليه فى قواربهم الصغيرة فى النيل وهى ألحان كانت دائما تصيبه بالسأم .

الكونشرتو الذى سيعزفه سيختلف عن أى كونشرتو آخر ، فهو لن يردد أيا من أنغام الأوركسترا ، بل إن الأوركسترا هو الذى سيردد الأنغام وراءه . سيكون هو فى المقدمة دائما وسيتبعه الأوركسترا .

لم يكن يتصور الكونشرتو عملا جماعيا يعتمد على التناسق والتناغم مابين الآله المنفردة والأوركسترا ، بل كان يتصوره مبارزة لحنية تصل إلى حد التصارع مابين أنغامه المنطلقة بلا حدود والمحاولات اليائسة للأوركسترا للحاق به .

لم يكن الكونشرتو فى الحقيقة إلا فرصة لإثبات تلك القدرات الخارقة التى كان يتصورها كامنة فى داخله والتى كان ينتظر بفارغ الصبر أن يستطيع استعراضها أمام الجماهير .

ثم جاء أخيرا اليوم المنتظر حيث هجم على أعواد الغاب مجموعة من الفلاحين الحفاة وأخذوا يقتلعونها من الأرض ويزيلون ما يحيط به من أعشاب يابسة فيما يعرف بعملية « الفسخ » التى عادة ما تتم فى بداية الربيع من كل عام وقبل هبوب رياح الخماسين .

كانت عملية همجية مؤلمة لكنه تحملها ، وعيناه على المستقبل الذى كان ينتظره عندما يصل إلى القاهرة . . كان يسمع صرخات الألم الصادرة من بقية أعواد الغاب من حوله وهى تقتلع من جذورها الضاربة فى الأرض ، لكن صرخته هو كانت أشبه بالشهيق العميق الذى يأخذه المولود الجديد عند خروجه إلى الدنيا والذى يسبق بكاءه ، وإن كان شهيقه هو لن يعقبه بكاء .

وإنما سيعقبه لحن قوى متواصل لن تكف الناس عن ترديده بعد أن يعزفه لأول مرة فى ذلك الحفل العظيم الذى كان ينتظره الجميع بالقاهرة .

وسافر إلى القاهرة فى سيارة نقل كبيرة لابد أنها أرسلت خصيصا من أجله رغم أنها كانت تقل مئات الأشياء الأخرى التى لايعرف ماهى فهو لم ينظر إليها طوال الرحلة الطويلة التى قطعتها السيارة من الصعيد إلى القاهرة .

وقد حاول جاهدا أن يتحمل مشقة الرحلة ، لكنه لم يستطيع ، كان الزحام فى سيارة النقل خانقا ، لم يكن هناك هواء مثل الهواء الذى كان يعرفه على ضفاف النيل ، ولم يكن هناك ماء كما هو الحال فى موطنه الأول ، وبدأ يزداد شعوره بالجفاف والحرارة والاختناق ثم أغشى عليه .

وفى القاهرة أفاق ليجد نفسه مغروسا فى حوض كبير لنباتات الزينة بأحد منازل القاهرة ، وقد استند إليه عود عملاق من نبات « الفيكس ديكورا » كان قد بدأ يميل فتم غرسه خلفه حتى يبقيه منتصبا .

لم يعرف كيف انتهى به المطاف فى هذا المكان . لابد أنه حدث خطأ . . أين صانع الناى الذى كان ينتظره ؟ . . أين الكونشرتو وأين الحفل ؟ . . ظل يصرخ ، لكن أحدا لم يكن يجيبه فلم يكن هناك أحد من حوله سوى ذلك النبات الأصم الذى يستند إليه .

كان كل ما يحيط به صناعيا ، فالهواء بارد برودة جافة تختلف عن البرودة التى كان يعرفها على ضفاف النيل ، وهو ينبعث من جهاز كهربائى مثبت بالحائط المجاور له . . والطمى الذى غرس فيه هو طمى صناعى عرف فيما بعد أنه موضة الآن فى القاهرة فمعظم البيوت الأنيقة لم تعد تستخدم الطمى الطبيعى ، وإنما هذا الطمى الصناعى المستورد والذى هو فى الحقيقة يتكون من قمامة الحدائق من الأوراق اليابسة والأغصان المتساقطة والمواد العضوية الأخرى التى يضاف إليها بعض الكيماويات ثم تترك لتتعفن فيما يعرف باسم «المكمور » وتتميز بأنها تحتفظ بالماء أكثر من الطمى الطبيعى ومن ثم فهى لاتتحجر مثله كما أنها خالية تماما من الحشرات والديدان وسائر الكائنات العضوية الأخرى .

أما الموسيقى التى كان يسمعها فى بعض الأحيان عندما يكون هناك حفل

عشاء بالمنزل فكانت موسيقى غريبة عليه تماما تعزفها آلات الكترونية لم يسمع بها من قبل وتصدر عن جهاز يدور بداخله شريط كاسيت تقوم صاحبة البيت باستبداله كلما وصل لنهايته .

وقرر أن يتذرع بالصبر قليلا فربما كانت تلك مرحلة سينتقل بعدها إلى أيدى صانع الآلات الموسيقية الماهر الذى تعرف عليه فى أحلامه . . لكن الأيام مرت . . اليوم تلو الآخر . . إلى أن تحولت إلى شهور . . ثم سنين . . وهو مغروس فى هذا الطمى الصناعى بحوض الزرع فى ذلك المنزل الأنيق بالقاهرة دون أن يلتفت إليه أحد .

وبدأ يقلق . ثم تحول قلقه إلى خوف حقيقى بعد أن أدرك أن حلمه لن يتحقق . ثم بدأ يشعر أن نهايته تقترب حين وجد العفن قد بدأ يدب فى عقلاته السفلى المغروسة فى ذلك الطين الصناعى الرطب الخالى من الحياة .

وبدأ لأول مرة يشعر بالحنين إلى حياته السابقة على ضفاف النيل فى أعالى صعيد مصر حيث الشمس والهواء الطلق بتقلباته الموسمية من الخريف إلى الشتاء ومن الربيع إلى الصيف . . حيث صحبة رفاقه من الغاب البلدى ، وحيث الطيور والأسماك والقواقع النيلية التى كانت تحيطه بدفئها وحنانها . وبدأ يشعر بالحنين لصوت الناى الحزين الذى كان يأتيه من القوارب المارة فى النيل . . ولأصوات الضفادع التى كانت تشكل الخلفية الإيقاعية لذلك اللحن العذب الأصيل .

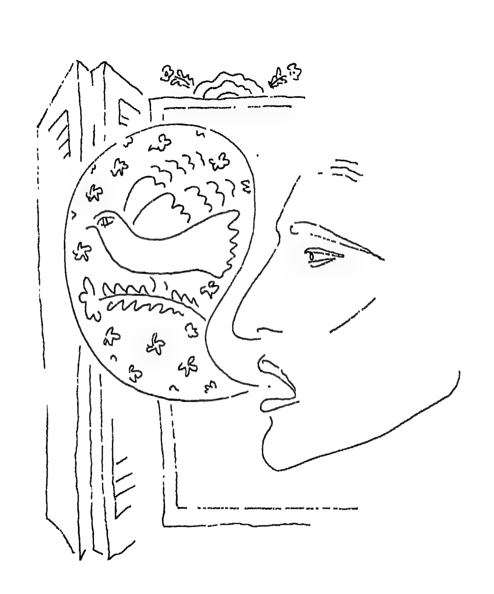
لكن حنينه الأكبر كان لذلك الطمى النيلى الأسود وتراب صعيد مصر الذى هو نتاج آلاف السنين من أجساد الأجداد من الآدميين والحيوانات والنباتات التى عاشت فى هذه البقعة من العالم فأثرتها حتى أصبحت من أخصب الأراضى فى العالم .

وأدرك لماذا كانت تصرخ أعواد الغاب حين كان يجرى اقتلاعها من تلك الأرض التى لن يعود إليها ثانية . . لأنه حين يترك مكانه فى ذ لك المنزل الأنيق بالقاهرة لن يكون للعودة إلى موطنه السابق ، وإنما ليلقى به فى القمامة !



عـودة النشـيد





حدثت المعجزة ونطق القبر
حدثت المعجزة وعاد الأموات أحياء يرزقون .

لم يكن أحد يتصور أن ماكان يتناقله الناس من أن صوت منشد الجماهير عاد يسمع من جديد من داخل القبر الذى دفن فيه منذ زمان ، هو حقيقة واقعة .

لكن ذلك حدث .

فقد سمع فى جميع أرجاء المدينة الصوت القديم . . الصوت العذب القوى ينشد من جديد مالم يعد أحد ينشد به فى هذا الزمان . . ينشد الجمال والحق واليقين .

فى بادئ الأمر تصور الناس أنه هذيان . . كيف يمكن أن يسمع هذا الصوت العذب الرخيم وقد مات صاحبه منذ سنين ؟ . . إنه هذيان !

لكن قاطنى الأحياء القريبة من قبر المنشد كانوا يسمعون الصوت بين الحين والحين ، ثم أصبحوا يسمعونه كل ليلة . . هو هو نفس الصوت القديم ونفس النشيد .

واجتمع أساطين الإنشاد فى البلاد الذين استبد بهم الخوف والرعاد ليتداركوا ما قد يصيبهم من بلاء . . وخرجوا يقولون للناس إن ذلك محض هذيان . . بل هو كفر وإلحاد . . إن الموتى لايبعثون . . وما فات قد مات .

لكن الصوت عاد يسمع من جديد . . صوت قوى وجميل . . وازدادت حدته وعظمت قوته حتى صار يسمع فى جميع أنحاء البلاد . . يقول : نعم قد مت لكن الحق لايموت .

واجتمع أساطين الإنشاد من جديد وخرجوا على الناس يقولون : إن الحق هو ما نقول وليس ما تنطق به القبور . . وأين كانت القبور طوال تلك السنين؟!

لكن صوت المنشد والنشيد أخذ يسمع من جديد . . صار يسطع فى الليل والنهار . . يبرق فى الليل ويشع فى النهار . . يقول : أنا الحق والحق أنا . . عودوا إلى فأنا اليقين . . حدثتكم فى الزمان فأنصتم إلى . . وأنشدتكم فطربتم للنشيد . . ثم مت وتركت لكم النشيد مدونا على ذهب بحروف من عبير . . وجاءكم الدجالون فأعطيتموهم النشيد ، فأخذوا يبدلون فيه ويغيرون حتى صار النشيد غير النشيد . . باعوا الذهب وبددوا العبير فضاع الحق بين أصوات المنشدين . . وأنتم سمعتم وطربتم للأصوات . . ونسيتم العهد واللقاء . . فهل مت أنا أم أنتم الأموات ؟

واجتمع الأساطين من جديد وقالوا : هذا سحر من عند الشيطان . . من اتبعه سلك طريق البطلان !

لكنه كان قد فات الأوان ولم يعد الصوت هو صوت القبور ولا الأموات . . فقد صار الآن يعلو من الربوع والنجوع . . أخذ ينبعث من صدور الأحياء .

ومع كل شمس ليوم جديد كان يزداد عدد المنشدين . . ينشدون نفس النشيد . . نشيد الحق وأغنية اليقين .

زجوا بهم فى السجون . . فتصاعدت أصواتهم من وراء الأسوار . . تنشد النشيد .

ألقوا بهم فى البحور . . فتعالت أصواتهم من الأعماق . . تنشد النشيد .

أحرقوهم فى النار . . فاحتدمت أصواتهم كألسنة اللهيب . . تنشد النشيد .

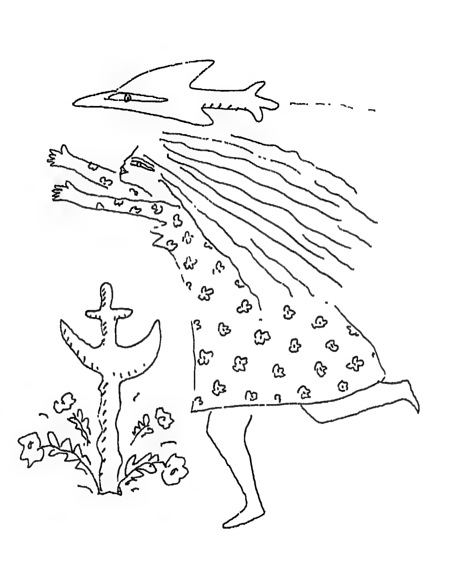
وفى كل مرة كان يسمع صوت النشيد كانت تصيب الصاعقة قلب الأساطين فيخرسون ولا يعودون ينطقون .

وانتقل النشيد من لسان إلى لسان حتى صارت كل البلاد صوتا واحدا عذبا وقويا . . وعاد المنشد ينشد للحق والجمال .



عناق تحت الأنقاض





قامت الطائرات الإسرائيلية بشن هجوم ضار على الضواحى الجنوبية لغرب بيروت فانطلقت عبلة من مخيم شاتيلا وسط الأشلاء المتناثرة على الطريق والدخان المتصاعد إلى السماء تجرى فى اتجاه مخيم صبرا القريب حيث كان يرقد عدنان .

كانت إسرائيل قد شنت هجوما جديدا على الضواحى الجنوبية لغرب بيروت المحاصرة ، وكانت عبلة تعرف بأن عدنان لابد قد أصيب فى هذا الهجوم لكن ما كانت تتمناه هو ألا يكون قد مات كما مات شقيقه قبل أسبوع واحد فقط حين ضمته هوورفاقه شبكة صيد ، خيوطها حديدية ارتفعت بها طائرة هليكوبتر إسرائيلية ثم ألقت بها من الهواء ملآنة بالشباب الفلسطينى إلى خارج بيروت . . أو كما مات والده عام ١٩٤٨ حين دهسه جنود « الهاجاناه» اليهود تحت كعوب أحذيتهم العسكرية بعد أن رفض مغادرة بيارة البرتقال الصغيرة التى كان يملكها بيافا .

كان عدنان فى الثالثة والثلاثين من عمره وكانت عبلة فى السابعة والعشرين ، كان هو فلسطينيا وكانت هى لبنانية كان مسلما وكانت مسيحية . كان فدائيا بلا مأوى وكانت ممرضة بمستشفى الصليب الأحمر ببيروت . . لكن شيئا ما جمع بينهما .

لم يكن ذلك مجرد حب كالذى نسمع عنه فى القصص أو نراه فى الأفلام ، كان أعمق من ذلك لأنه امتزج بالمصير الواحد الذى يجمع بين مواطنى الأقطار العربية كلها مسيحيين ومسلمين ، سمرا وبيضا مشرقيين ومغاربة .

لذلك لم تقل عبلة لعدنان أبدا إنها تحبه رغم مشاعرها القوية نحوه ولم يقلها هو لها وكأنه شيئا طبيعيا جدا أن يحب كل منهما الآخر ، لكنها فى ذلك اليوم وهى تجرى فوق الأشلاء وبين الدخان قررت أن تقول لعدنان بكل ما فى كيانها من قوة إنها تحبه ، كما لم تحب أحداً من قبل ، لذلك تمنت ألا يكون قد مات .

وتذكرت عبلة كيف واجه عدنان الموت حين أصيب منذ شهرين فى بداية الهجوم الإسرائيلى ونقل إلى المستشفى الذى كانت تعمل به وهو فاقد الوعى . كان قد أصيب فى ساقه بإحدى القنابل العنقودية التى ظلت نيرانها مشتعلة فيه لأكثر من ساعتين مما استوجب بتر الساق .

ومكث عدنان بالمستشفى ثلاثة أسابيع عاد بعدها إلى ذويه بالمخيم يحاول رفع روحهم المعنوية وتشجيعهم على المقاومة ، لكنه قبل أن يغادر المستشفى كان قد ترك شيئا ما فى نفس عبلة كما كانت هى أيضا قد تركت شيئا فى نفسه .

وتركت عبلة المستشفى هى الأخرى وذهبت إلى مخيم صبرا وراء عدنان ولم تعد تبرحه إلا لفترات قصيرة لكى تقوم بأعمال التمريض فى المخيمات الأخرى القريبة .

وأخذت العلاقة تزداد توثقا بين الممرضة اللبنانية والشاب الفلسطينى مع كل هجمة جديدة للقوات الإسرائيلية ، وكانت تشعر عبلة بأن نيران القنابل الإسرائيلية قد أضاءت لها الطريق إلى قلب عدنان ، فأدركت حقيقة انتمائها الوطنى وأحست بخطورة قضيتها المصيرية من خلال حبها له ، وكانت تريد أن تقول كل هذا فى ذلك اليوم وهى تجرى إلى المخيم .

وصلت عبلة إلى مخيم صبرا لتجد عدنان قد أصيب بالفعل كما حدثتها نفسها لكنها وجدت أيضا أن أمنيتها قدتحققت ولم يمت عدنان ، وعلى الفور بدأت تفرغ لعدنان ما كان يجيش به صدرها وهى تنظف الجرح العميق الذى أصاب كتفه الأيمن وتستخرج منه الشظايا .

وما إن انتهت عبلة من تضميد الجرح حتى ضمها عدنان بقوة إلى قلبه بذراعه المصاب قائلا : « إننى أحببتك أيضا منذ رأيتك فى المرة الأولى »

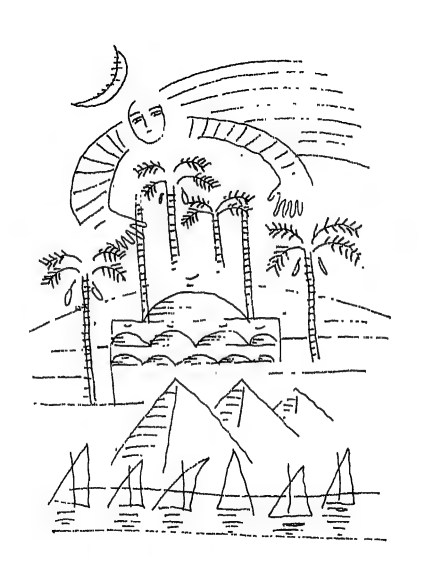
وسادت لحظة صمت قصيرة لم يسمع خلالها إلا أصوات الانفجارات البعيدة ثم قطع عدنان ذلك الصمت قائلا : « لو لم يكن هذا حالى يا عبلة لتزوجتك فى التو واللحظة وليطلقوا علينا بعد ذلك جميع القنابل التى يملكونها لايهم » .

ورفعت عبلة رأسها من فوق صدر عدنان ونظرت إلى عينيه فوجدتهما قد امتلأتا بالدموع التى لم يرد لها أن تنهمر فقالت له : « بل سنتزوج الآن ياعدنان . سأذهب لآتى بشيخ مسلم أو قس مسيحى ليزوجنا فورا ، إن الحياة قصيرة ولا يجب أن نفترق بعد اليوم » .

وكانت عبلة محقة فى أن الحياة قصيرة ، لكنها كانت قد نسيت فى غمرة انفعالها أن الطائرات الإسرائيلية كانت دائما تعود بعد قليل لتمطر الموقع الذى قصفته بوابل جديد من النيران يقضى على كل الجرحى الذين نجوا من القصف الأول ، فما إن انتهت عبلة من حديثها حتى كانت القنابل تنهال فوق رأسها هى وحبيبها وتدفن جسديهما فى عناق أبدى تحت الأنقاض .

الرجـل الذى عادت إليه ذاكرتـه





فاض به الكيل ولم يتحمل أكثر من ذلك فذهب وألقى بنفسه فى النيل حتى يضع حدا لهذا العذاب الذى لاينتهى .

فقد أوصدت فى وجهه جميع الأبواب : لم يستطع الحصول على عمل بعد أن تخرج من الجامعة بتفوق ، ولم يستطع أن يبقى بلا عمل ، عرض عليه بعض الأصدقاء أن يعمل بإحدى شركات الانفتاح الأجنبية فرفض لأنه لم يدرس الهندسة طوال تلك السنين الخمس ، لكى ينتهى به المطاف سكرتيرا ـ كما كان معروضا عليه ـ أو موظف علاقات عامة بإحدى الشركات الأجنبية .

كم من مرة كان يخطط هو وعلا زميلته بالجامعة التى أحبها وأحبته للمستقبل المشرق الذى كان ينتظرهما بعد حصوله على البكالوريوس ، عندئذ سيكون مهندسا ميكانيكيا وسيعمل بأحد المصانع الوطنية مثل الرعيل السابق من المهندسين الذين كان يسمع عنهم بالكلية : هؤلاء المهندسين العظام الذين أقاموا السد العالى فى الستينات أو الذين أنشئوا مصانع الحديد والصلب العملاقة .

كان يحلم بأنه سيجد شقة صغيرة ولكن مناسبة ، وأنه سيتزوج علا ويبدآن حياتهما الزوجية ثم ينجبان أبناء وبنات يفتخرون بوالدهم للدور الوطنى الذى يقوم به من أجل بناء المجتمع الحديث، تماما كما كان هو يفتخر بمهندسى السد العالى والحديد والصلب .

كان يحلم ، وفى أحلامه لم تكن الشوارع غير مرصوفة ولا كانت وسائل المواصلات تالفة ولا كانت التليفونات بدون حرارة ولا كان كيلو اللحم بـ ١٤ جنيها ولا كان الحذاء بـ ٣٠ جنيها .

لكن أحلامه سرعان ماتبددت بعد تخرجه من الجامعة ، فلم يجد العمل الذى كان يحلم به ولم يجد الدور الوطنى الذى كان يتصوره لنفسه ولم يجد الشقة . ووسائل المواصلات السلكية واللاسلكية ظلت على ماهى عليه والأسعار ارتفعت أكثر من ذى قبل ، أما علا فقد تركت له البلد تماما وسافرت مع والدها الذى ذهب للعمل بإحدى دول الخليج .

وبدأ يفقد كل شىء حتى وصل إلى درجة أحس أنه بدأ يفقد إحساسه بهويته فلم يعد يدرى من هو وإلى ماذا ينتمى ، كان يصحو فى الصباح وهو لايدرى ما هى جنسيته : هل هو أمريكى أم باكستانى أم نرويجى أم إسرائيلى أم سنغالى ؟ كان يسأل نفسه ؛ ياترى ماهى لغتى التى أتحدث بها ؟ وفى بعض الأحيان كان يسمع صوت أمه وهى تصيح من المطبخ « قطيعة تقطع الميه وسنينها! روحى يابنت الكومبانية قوليلهم المية انقطعت تانى ، ده أيه وقف الحال ده ؟ »فيتعرف على صوتها بسرعة ويدرك أنه لابد مصرى وأن لغته لابد هى العربية .

فى البداية كان يشعر بهذا التوهان على فترات متباعدة وفى الصباح فقط ما بين اليقظة والنوم ، لكنه بعد ذلك بدأ ينتابه هذا الشعور أثناء ساعات النهار أيضا ، فكان يمشى فى شوارع القاهرة ولا يتعرف عليها ويحاول قراءة اللافتات المعلقة على المحال ولا يفهمها .

ذهب مرة ليقدم بإحدى الشركات بشارع جواد حسنى بوسط البلد فلم يجد الشارع ، ظل يلف ويدور فى حلقة مفرغة فيجد نفسه فى شارع الشواربى مرة وفى شارع قصر النيل مرة أخرى ، فى النهاية استجمع شجاعته وقرر أن يسأل أول من يصادفه ، وكانت فتاة لها نفس ملامح أخته التى توفيت أثناء العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ عندما كان والده يعمل ببورسعيد :

ـ من فضلك فين شارع جول جمال ؟ قصدى شارع .. شارع جواد حسنى؟

لم ترد عليه الفتاة لكنه فوجئ بصفعة قوية تنزل على وجهه من شاب يبدو

أنه كان معها ، فوضع رأسه بين كفيه وعاد إلى البيت دون أن يقدم للعمل فى الشركة .

وذهب مرة إلى كلية الهندسة ليسأل عن الدكتور يوسف مرزوق العميد الذى كان معجبا به ، وكان يقول له دائما إنه سيكون له مستقبل باهر ، كان ينوى أن يسأله إن كان باستطاعته أن يجد له عملا يليق به ، لكنه لم يتعرف على الكلية التى أمضى بها خمس سنوات كاملة ، وجد كثيرا من الفتية يلبسون الجلاليب البيضاء وفتيات يلبسن خياما فضفاضة بكل منها فتحتان صغيرتان لاتظهران إلا أعينهن .

الوحيد الذى تعرف عليه كان عم أحمد الفراش ، كان كما هو لم يتغير بجلبابه القديم وطاقيته الصوف ، سأله عن العميد :

ـ ده استقال يابنى بقاله سنتين دلوقت .

ـ . . .

ـ فتح شركة استيراد وتصدير .

ـ . .

ـ ماتروح له فى الشركة يمكن يشغلك عنده ده كان بيحبك قوى .

ولكن لسبب لم يدركه لم يجد فى نفسه أى رغبة فى الذهاب إلى العميد وكلما تذكر تلك الواقعة انتابه شعور بالإحباط لايعرف مصدره .

وأخذت حالته تتدهور إلى أن وصل به الحال إلى أنه أحيانا لم يكن يعرف اسمه فإذا ناداه أحد كما حدث ذات مرة فى شارع طلعت حرب لم يكن يجيب . لكن « نبيه » زميله فى الدراسة ظل يجرى وراءه إلى أن لحق به بالقرب من ميدان التحرير فأمسكه من كتفه وقال له :

ـ إيه حكايتك ؟ أنت مابتردش على ليه ؟

كان قد سمع صوته فعلا ولكنه لم يدرك أن الاسم الذى كان يصيح به صديقه هو اسمه .

فى ذلك اليوم أدرك نبيه أن صديقه ليس على مايرام فأخذه وجلسا سويا فى أحد محلات « ومبى » حيث أكل نبيه « الهامبورجر » ثم طلب كوبين من عصير البرتقال ، لكن صديقه لم يستسغ طعم العصير وأحس نبيه بذلك فسأله :

ـ أنت مابتحبش عصير البرتقال ؟

ـ . . . .

ـ يافلاح دوا إيه ؟ ده عصير برتقال لكن صناعى ، مستورد يعنى ، ماهو دلوقت كل حاجة فى بلاد برة صناعية حتى عصير الفواكه .

ثم أضاف فى لهجة من يقدم إعلانا بالتليفزيون :

ـ إنه المسحوق العجيب ! ضعى منه ٣ ملاعق فى كوب ماء يصبح لديك كوب من عصير البرتقال . . أو الليمون . . أو الأناناس .

ـ . . . .

ـ ده ثمن الكباية الواحدة ٥٠ قرشا ، أنت بس اللى مش وش نعمة .

لم يعرف ماذا يقول ولم يذكر أنه قال شيئا على الإطلاق ، كان يحس بأن «نبيه» يتحدث إلى شخص آخر غيره وأنه مجرد متفرج على الحديث دون أن يكون طرفا فيه ، ولكن لابد أنه قال لنبيه إنه لايعمل لأنه سمع نبيه يقول :

ـ إزاى لسه ماشتغلتش لغاية دلوقت ؟

ـ . . . .

ـ ياراجل بلاش خيابة بقى ، البلد مليانة شغل بس إنت اللى مخك مقفل .

ـ . . . .

ـ ما أنا قدامك آهه بأقعد فى أحسن حته وأطلب اللى نفسى فيه وكل حاجة ، لازم الواحد يباين شوية علشان المسألة تمشى .

ـ . . . .

ـ أنا قلت إنك كبرت وفهمت الحياة ، لكن الظاهر إنت لسه زى ما أنت ما تغيرتش من أيام المدرسة . . . فاكر لما كنت ما ترضاش تغش وتقول لنا ده

حرام ؟ ها ها ها ! صحيح كان تقديرك آخر السنة دايما أحسن مننا لكن الحياة بقى غير المدرسة والحرام حقيقى هو أنك تفضل زى ما انت كده . أنا بكلمك علشان بحبك ، أنت ياما ذاكرت لى فى المدرسة برضك .

ـ . . . .

ـ عموما أنا مستعد أساعدك ، تعال أشتغل معانا ، إحنا مجموعة شباب بتشتغل سوا ، طبعا فيه مشاكل كتير لكن الواحد لازم يعافر ، من ناحية السوق مليان حيتان بتبلع أى صيد صغير ومن ناحية تانية الأوضاع السياسية الجديدة دى مخلية الواحد مش عارف رأسه من رجليه لسه ، لكن معلهش تعال معانا وآهه اللى يجرى لنا يجرى لك بدل ما أنت قاعد كده .

ـ . . . .

ـ ياعم سيبك من المثاليات بتاعة المدرسة دى بقى ، هو يعنى انت اللى كويس واحنا ولاد كلب ؟ أنت فاكر نفسك مين ؟ هه ؟

أنت مين يعنى ؟! هه ؟ قوللى أنت مين أنت ؟

ظل نبيه يكرر عليه السؤال وفى كل مرة يسأله عن هويته كان يزداد شعوره بالضياع ولا يدرى من هو ، صحيح من هو؟

فجأة نهض من مكانه تاركا نبيه وراءه دون كلمة وداع وأخد يجرى فى الشوارع فى جميع الاتجاهات إلى أن وصل فى النهاية إلى كورنيش النيل بجاردن سيتى .

كانت الشرطة النهرية على بعد أمتار قليلة منه ، نظر إلى الضفة الأخرى من النيل وهو يلهث من شدة ماجرى فوجد المبنى القديم لمجلس قيادة الثورة فتعرف عليه ، كان كما كان يذكره ونظر إلى النيل فوجده أيضا كما هو ، إذا لماذا تغير كل شىء ؟

وبدأت تشتد عليه حالة التوهان التى تنتابه فاستجمع كل قوته وقرر أن يضع حدا لعذابه فقفز من فوق سور الكورنيش وألقى بنفسه فى النيل .

وماهى إلا ثوان معدودة حتى كانت فرقة من الشرطة النهرية تنتشله من الماء .

لم يغرق ، وعندما قام أفراد فرقة الإنقاذ بالضغط على ظهره وهو ملقى على الأرض لكى يفرغ مافى جوفه من ماء لم تنزل منه نقطة ماء واحدة ، كل ما حدث أنه فقد وعيه لدقائق قليلة عاد بعدها كما كان فوقف على قدميه وهم بمغادرة مقر الشرطة النهرية ، لكنهم منعوه قائلين إنهم لابد أن يبلغوا البوليس بالواقعة فلم يفهم :

ـ . . .

ـ واقعة انتحارك .

ـ . . .

ـ أيوه أنت مش فاكر ؟

ـ . . .

ـ دلوت حالا ، وهدومك لسة مبلولة أهيه .

وفى قسم البوليس لم يستطيعوا أن يأخذوا منه أى بيانات عن شخصيته أو عن سبب انتحاره أو حتى اعتراف منه بأنه أقدم بالفعل على الانتحار ، لم يكن يحمل معه أى أوراق تدل على شخصيته ولم يكن يعرف اسمه أو جنسيته أو ديانته ، وعندما جاء الطبيب ليفحصه قال للضابط إن الشاب المنتحر مصاب بحالة فقدان للذاكرة وإنه يعانى من صدمة عنيفة غير معروف أسبابها .

وقد كانت لهجته المصرية الواضحة تسبب لضباط القسم حيرة كبيرة فهو بالتأكيد مصرى لكنه لايتعرف على أى شىء فى مصر . كانوا يعطونه الصحف فكان يقرؤها بطلاقة دون أن يفهم ماتقوله أو عما تتحدث .

كانت حالة الطوارئ التى عمت جميع أقسام البوليس قد خفت حدتها بعد انقضاء بضعة أسابيع على حادث المنصة واغتيال الرئيس السادات فقرر الضباط أن يستبقوه معهم بالقسم إلى أن تعود إليه ذاكرته فيتمكنوا من استكمال

المحضر الخاص بواقعة انتحاره ، وتعاطفوا معه فكانوا يأتونه بسندوتشات الفول والطعمية وفى الليل كان ينام على أحد المكاتب بالقسم .

كان معظم وقته يقضيه فى قراءة الصحف اليومية كما يقرأ الأطفال القصص الخرافية ، وفى بعض الأحيان كانوا يسمعونه يضحك بصوت عال لدقائق متوالية وهويقرأ إحدى المقالات الافتتاحية بالصحف أو المجالات .

كان يحكى للضابط أن به رغبة لزيارة هذه البلد التى يقرأ عنها فى الصحف فكانوا يضربون كفا بكف ويقولون : « لاحول ولا قوة إلا بالله : احنا تعبانين منها وهو عايز يروح لها برجليه ! » .

إلى أن جاء يوم كان قد مضى عليه أكثر من أسبوعين فى قسم البوليس يعيش كالحيوان الأليف الذى تعود على مكان فلم يعد يغادره ، كان نائما على المكتب حين دخل عليه أحد الضباط فى السابعة صباحا ، فنهض بسرعة من فوق المكتب وسأل كعادته عن صحف اليوم وعلى الفور أعطاها الضابط له رغم أنه لم يكن قد قرأها بعد ، فأخذ يلتهمها كما كان يفعل كل يوم .

فى هذا اليوم لم تضحكه الصحف ، لا « المنشتات » ولا مقالات كبار الكتاب ورؤساء التحرير ، لم يضحك ، ظل صامتا مدة طويلة وهو يقرأ الصحف ويعيد قراءتها كما كان يفعل دائما وكأنه يبحث عن شىء ما .

فجأة بدأ ينتحب بصوت خافت فى البداية فلم يسمعه أحد ولكن سرعان ما بدأ الضباط يلاحظون أنه يبكى بكاء شديدا فذهبوا إليه مستفسرين عن حالته فلم يجب عليهم ،بل ظلت عيناه تذرفان الدمع وهما مسمرتان على الصحيفة التى أطبق عليها بيديه .

ظل على حاله هذا بضعه دقائق عجز خلالها الضباط عن التحدث إليه أو التهوين عنه فعاد كل منهم مرة أخرى إلى عمله تاركينه فى ركنه بالغرفة يقرأ الصحف ويبكى .

فجأة صرخ صرخة مدوية سمعها المارة فى الشارع وانتقض واقفا وأسرع إليه الضباط فقال لهم :

ـ خلاص أنا خفيت ! أنا دلوقت عارف أنا مين ! أنا عربى واسمى عربى ولغتى عربية !

ووجد الضباط ينظرون إليه غير مصدقين فقال :

ـ اسمى محمد وبلدى مصر ودينى الإسلام !

كان يصرخ فى انفعال واضح ، وحاول الضباط تهدئته لكن انفعاله ظل كما هو ، فسأله أحدهم :

ـ هل تقدر تقول لنا فين أهلك علشان نبلغهم أنك هنا .

ـ أنا عارف فين أهلى وفين ناسى وأنا اللى حاروح لهم .

وقرر الضباط استدعاء الطبيب على الفور ليطلع على هذه الحالة الجديدة التى ألمت به .

بعد قليل كان قد استعاد هدوءه ، وحضر الطبيب ففحصه جيدا ثم قال إنه لايجد مايبرر بقاءه فى القسم بعد اليوم فقد استعاد ذاكرته بالفعل .

وبعد أن غادر الطبيب القسم قام محمد بتوديع الضباط بعد أن استكمل معهم بقية بيانات المحضر فى هدوء ثم خرج إلى الشارع وسط شعور بالحيرة عم جميع الموجودين بالقسم .

وبعد أن غادر محمد القسم عاد الضابط الذى كان محمد ينام الليل على مكتبه فجلس إلى ذات المكتب وحاول جمع الصحف التى كان محمد قد تركها وراءه كومة منعكشة على الأرض ثم أخذ يقرؤها وسط شعور قوى بالنعاس كثيرا ماكان ينتابه فى وسط النهار .

وكانت عناوين الصحف فى ذلك اليوم تقول :

الرئيس يقول :

ـ لاتنازل عن مكاسب ثورة يوليو .

ـ علينا أن نتجه لإنتاج الاحتياجات الأساسية للقاعدة العريضة من

الشعب وليس السلع الكمالية للقلة القادرة .

ـ الهوة لاتزال عميقة ما بين الموقف المصرى والموقف الإسرائيلى . . الهوة عميقة . . . الهوة لاتزال . .

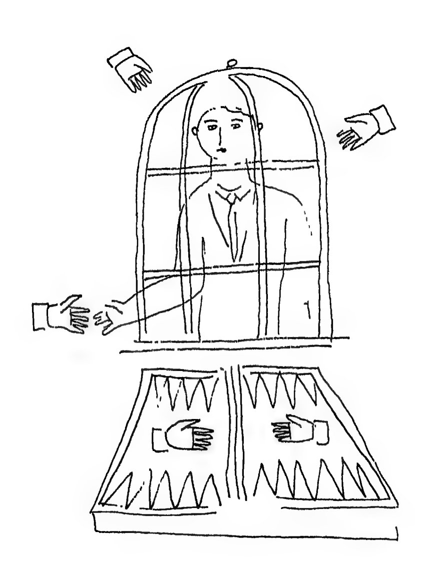
ـ مصر ستلتزم بسياسة عدم الانحياز .

ـ مصر للجميع وليست لأقلية متميزة أو صفوة مختارة .

ـ نقل جامعة الشعوب الإسلامية من مبنى جامعة الدول العربية حتى تعود الجامعة مرة أخرى إلى القاهرة . . تعود الجامعة العربية . . . القاهرة العربية . . . تعود . . . تعود . . . تعود .

عشرة طاولة





فى تلك الليلة لم يستطع تحمل الوحدة أكثر من ذلك . . كان بحاجة لمخالطة إنسان آخر . . أى إنسان . . امرأة . . رجل . . طفل . . كهل . . لايهم . . المهم أن يشعر بوجود شخص آخر معه . . أمامه . . إلى جانبه .

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة مساء وكان بالجو برودة قارسة . . نزل سلم البيت بسرعة . . ثلاثة أدوار كان يختصر درجاتها فينزل كل درجتين معا . . كاد ينسى الدرجة المكسورة عند الدور الأول . . ولولا يداه المرتكزتان على سور السلم لوقع على الأرض أمام باب شقة الدور الأرضى .

ما إن وطأت قدماه أسفلت الشارع خارج باب البيت حتى أحس بالبرودة تنخر فى عظامه وشعر بالماء الذى يغطى الشارع يتسلل بسرعة إلى قدميه عبر نعل حذائه الهزيل . . لكن ذلك كله لايهم . . فالبرودة الخارجية لاتقارن بالصقيع الموحش الذى بداخله .

لم يكن يتصور حين غادر المنصورة منذ أكثر من سبع سنوات أن الحياة فى القاهرة يمكن أن تكون موحشة إلى هذا الحد . . فى المنصورة كان يمضى وقته دائما وسط الأقارب أو الأصدقاء . . سواء كان بالمدرسة أو المنزل أو الطريق العام . كان يعرف جميع أهل بلدته . . كما كانوا هم يعرفونه . . كان يعرف البقال الذى كثيرا ماكانت والدته ترسله إليه ليأتى لها بالزيت أو العدس . . والخردواتى الذى كان يُحمِّله السلام لوالده كلما ذهب ليشترى منه الكراريس والأقلام للمدرسة . . وأم صلاح العجوز التى كانت تبيع الجبن القريش على ناصية شارع قسم الشرطة والتى كان ابنها صلاح يجلس إلى جانبه فى الفصل .

فى القاهرة تعرف بالطبع على الكثيرين وصادق أيضا الكثيرين . . لكن

الصداقة فى القاهرة تختلف عن الصداقة فى بلدته . . فهى صداقة محدودة بالمكان والزمان . . ما إن يترك المكان حتى تذهب الصداقات التى نشأت به . . وما إن يتغير الزمان حتى تزول معه العلاقات التى نشأت فيه .

بدأ جسده ينتفض قليلا من شدة البرد فأسرع فى خطاه حتى يخفى تلك الرجفة التى تملكته . . فكر أن يركب الأوتوبيس . . أى أوتوبيس . . فأكثر ما يستطيع الإنسان أن يقترب من الآخرين فى القاهرة وهو فى الأوتوبيس حيث الأجساد تحيط به من كل جانب . . يشعر بها تتنفس . . تنتفخ ثم تخرج ما بها من أنفاس دافئة على وجنتيه . . على مؤخرة رقبته . . على يديه . . يشعر بأجساد تعرق من حوله فتبعث برطوبة دافئة على صدره . . على ظهره . . يشعر بها تميل يمينا ويسارا مع كل إنحناءه للأوتوبيس ثم تصعد وتهبط كلما مرت عجلات العربة على أحد المطبات التى تكثر فى شوارع العاصمة .

حين وصل الأوتوبيس كان خاليا تماما فى تلك الساعة المتأخرة من الليل إلا من السائق فقط . . لم ير الكمسارى بداخله . . كانت المقاعد الحمراء الخالية تلمع فى الضوء المبهر للمصابيح الداخلية للسيارة ، كأنها أفواه مفتوحة تضحك منه ومن وحدته وسط البرد القارس .

ثلاث سنوات كامله أمضاها فى مكتب التأمينات التابع لوزارة الشئون الاجتماعية ببولاق الدكرور . . وأربع سنوات قبلها قضاها طالبا بكلية الآداب قسم الوثائق والمكتبات . . ثمانى سنوات بالتمام والكمال عرف خلالها الوحدة التى لم يكن يعرفها من قبل .

كان فى البداية يسافر إلى المنصورة كل شهر أو شهرين ثم تباعدت زياراته حتى كانت تمضى ستة أشهر أو ثمانية دون أن يزور عائلته بالمنصورة . . ومع الوقت تغيرت طباعه ولم يعد يشعر بالرغبة فى الزيارة ، كما كان يفعل من قبل . . لم يعد يفتقد أهله كما كان يفعل من قبل . . الإنسان يتغير وفق الظروف التى يعيش فيها . . تماما كالحيوانات . . الحيوان الذى يعيش فى أقفاص حديقة الحيوان فى المدينة يختلف عن مثيله الذى يعيش وسط أقرانه فى

الطبيعة المفتوحة . . الطباع تتغير والعادات تتبدل لتحل محلها طباع وعادات الأسر حتى يصبح الحيوان ـ أو الإنسان ـ فى النهاية حيوانا آخر من فصيلة أخرى . . طبائعه مختلفة . . وتصرفاته مختلفة .

بعد تلك السنوات الطويلة فى القاهرة لم يعد يشعر بأنه يفتقد ذلك الدفء الذى عرفه فى صباه . . كان زحام الأجساد فى القاهرة يغنيه عن حرارة المشاعر الإنسانية التى يعيش بها أهل الريف . . وكان يشعر بالوحدة فقط عندما يبعد عن ذلك الزحام . .

سيارة انحرفت فجأة فى اتجاه الرصيف الذى يسير عليه فأمطرته بشلال من المياه القذرة الراكدة بالشارع ثم توقفت بعد مسافة . . لم يستطع أن يتبين لونها بسبب الأوحال التى كانت تغطى جنباتها . . انفتح بابها وقفزت إلى جانب السائق امرأة لم يكن قد لاحظ وجودها بالشارع أثناء سيره . . أسرع بخطاه حتى اقترب من السيارة لكنها انطلقت بسرعة فغمرته بالماء مرة أخرى حتى أصبح نصفه الأسفل فى قذارة الشارع الموحل .

شعر بأصابع يديه تتجمد داخل جيب البنطلون المبلل فزاد من سرعة خطاه . . أخذت رياح خفيفة لكنها لاسعة تصفعه على وجهه من اليمين واليسار . . ثم فجأة هطلت الأمطار .

توقف فى مكانه . . فكر فى العودة مرة أخرى إلى البيت . . ثم واصل السير بسرعة . . لن يتوقف . . أسرع خطاه من جديد حتى كاد يجرى .

كانت سلوى هى التجربة العاطفية الوحيدة التى مر بها منذ حضر إلى القاهرة وقد دامت العلاقة قرابة العام ثم انتهت . . كانت سلوى تسخر منه لأنه لم يحاول أن يقبلها . . وكانت سنة ثالثة بالكلية أسوأ أعوام الدراسة بالجامعة . . أصدقاء سلوى كانوا يقولون إنه قروى ساذج . . وزملاؤه كانوا يعايرونه لأنه « خام » مازال يعتقد أن ملامسة أى فتاة حرام . . كان مازال يعتقد فى ذلك الوقت أن الجنس ليس كل شىء ، وأن المشاعر والعواطف والأحاسيس أهم من أى حس جسدى .

كانت علاقته بسلوى تجربة مريرة لكنه نسيها تماما ولم يعد يتذكرها إلا كلماوجد نفسه وحيدا . . بعيدا عن الزحام . . عن أجساد البشر . . عن هذا اللحم الحى وتلك الأنفاس .

عندما وصل إلى مقهى الحاج سلطان لم ير أحداً من الزبائن . . كانت جميع الكراسى الخيزران والمناضد المعدنية الصغيرة قد انتقلت من فوق الرصيف الممطر إلى الداخل .

كانت نوافذ المقهى مغلقة وتحول رذاذ أنفاس الزبائن على زجاجها إلى ستائر حاجبة لاتظهر لمن فى الشارع إلا أشباحا فى الداخل تروح وتجيئ من خلف النوافذ .

فتح الباب ودخل بسرعة فأحس على الفور بأنفاس الحاضرين تكسو وجهه البارد . . زالت لسعة البرد التى أحسها على وجهه فى الخارج وكأن كفين دافئتين قد أحاطا بوجنتيه .

وقف عند الباب المغلق خلفه دون حراك ينظر حوله ويداه مازالتا فى جيبى بنطلونه المبلل . . على كل منضدة جلس رجلان وجها لوجه يلعبان الطاولة . . بعض المناضد كان يحيط بها أفراد آخرون يتابعون اللعب . . أو يدخنون الشيشة التى عبأ دخانها جو المقهى .

أوراق الزرع الذى كان قد تم إدخاله من فوق الرصيف كانت قد اغتسلت بماء المطر فزال عنها التراب وصار لونها أخضر صافيا . . لكن أزهارها كانت قد فقدت ينعانها وتهدلت أوراقها وسط دخان المقهى المغلق . . فقط عود الصبار ظل منتصبا بأشواكه الحادة فى الإصيص المستدير .

فى ركن ناء من المقهى لمح شابا يجلس بمفرده وقد وضع أمامه على المنضدة طاولة مفتوحة . . كان قشاطها يبرق من بعيد وسط غيوم الدخان .

تقدم بلا تردد وجلس على المقعد الشاغر أمام الشاب . . لم يتبادلا التحية ولم يتكلما . . مد يده بشكل آلى فالتقط الزهر وأخذ يلعب .

فى البداية كانت حركة يديه عصبية بعض الشىء . . لم يكن ذلك ارتباكا كما تصور زميله الجالس أمامه . . وإنما كان بقايا الرجفة التى صاحبته فى الطريق . . لكن بالتدريج أخذ حماسه للعبة ينظم حركاته .

شعر بالشاب الجالس أمامه يبادله الحماس ، وسرعان مابدأ بعض الحاضرين يلاحظون حرارة اللعب فى هذا الركن من المقهى فترك بعضهم اللاعبين الآخرين وجاءوا يتفرجون عليهما .

تحولت الطاولة إلى بؤرة اهتمامة الوحيدة فى هذه الجلسة . . بل فى الحياة ذاتها . . لم يعد هناك فى حياته سوى ذلك القشاط الأبيض الذى كان قشاطه الأسود يضربه الواحد تلو الآخر فيخرجه من الطاولة . . كان يلعب لعبته بحماس آلى لاشعور فيه ولا إحساس .

بعد قليل كان قد ذهب عنه البرد ونسي وحشة الحياة فى المدينة الكبيرة بهذا التفاعل المتبادل بينه وبين زميله باللعب : دور له ودور لزميله . . دور له ودور لزميله . . حتى حانت لحظة النهاية .

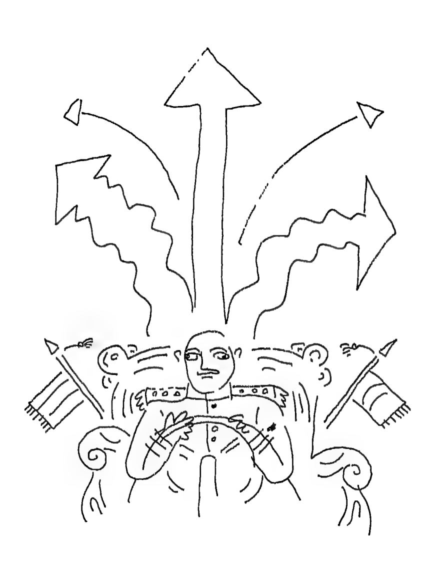
كان الدور عليه لكن الزهر وقع على الأرض . . لا لن يضيع منه الدور . . يجب أن يحرز هدفه . . يجب أن يكسب . . لم ينحن ليلتقط الزهر من فوق الأرض . . ظل ينظر إلى عينى الشاب الجالس أمامه بلا كلام . . بعد لحظات انحنى الشاب والتقط الزهر ثم قدمه له فى خنوع .

قبض على الزهر بيده فى ثقة لاحظها المتفرجون بينما أخذ الشاب ينظر إليه فى استسلام . . ظل يرج الزهر فى سرعة متزايدة ثم قذف به بقوة على الطاولة أمام زميله بينما علت صيحة أحد المحيطين بهما : « دوش ! » . . وانتهت العشرة .

قام فى هدوء وغادر المقهى صامتا كما دخل . . فى طريق العودة كان المطر قد توقف وزال عنه الشعور بالوحدة .

الأوتوبيس





مات السائق وترك الأوتوبيس المكتظ بالركاب معلقا على صخرة فوق جبل المقطم فى جنح الليل ترتكز عجلتاه الخلفيتان على الطريق الضيق بينما تتدلى إحدى عجلتيه الأماميتين فى الفراغ وتدور فى الهواء .

لم يصدق أحد من الركاب ما حدث ، ففى لمح البصر كان الأوتوبيس قد انحرف عن طريقه وقذف بالسائق إلى الخارج حيث سقط من فوق الجبل جثة غارقة فى بحر من الدماء .

سقطت أيضا سيدة مسنة كانت تجلس على السلم الأمامى تاركة وراءها قفتها الكبيرة كما سقط عدد آخر من الركاب لا يذكر أحد من هم ولا أين كانوا يجلسون .

الجثة الوحيدة التى كانت ظاهرة أمام أعين الركاب هى جثة السائق ، ومع ذلك فإن أحداً لم يلق بالا إليه أو إلى ما أصابه فقد كانت المصيبة التى تركها وراءه تفوق فى هولها فجيعة الموت التى لحقت به .

ما العمل ؟ وماذا باستطاعة أى من الركاب أن يفعل فى مثل هذا الموقف الذى لايحتمل أى خطأ ؟ الظلام دامس وأى حركة بسيطة من الركاب قد تتسبب فى الإخلال بتوازن الأوتوبيس فينقلب إلى سفح الجبل وراء سائقه .

كان هذا ما أدركه الكمسارى الشاب الذى صاح فى الركاب من مؤخرة السيارة بمجرد وقوع الحادث أن يلتزموا جميعا مواقعهم دون حراك .

لم يدر أحد من الركاب من الذى يصيح وسط الظلام الحالك الذى عم السيارة ، ولكن الكمسارى أخرج من جيبه بطارية صغيرة أضاءها فبدد بعض

الظلمات حتى بدأ الركاب يتبينون معالم بعضهم البعض . . ثم أخرج من جيبه علبة ثقاب أضاء بها قُلة شموع كتلك التى تستخدم فى سبوع الأطفال كان ارتجاج السيارة قد قذف بها من قفة السيدة العجوز إلى منتصف الممشى الواقع بين مقاعد الركاب .

وسرعان ما أضىء المكان وكأن الشموع ثريا كبيرة وسط السيارة فبدأ الركاب يهمون بالحركة لكن الكمسارى سارع برفع ذراعه متوعدا وذلك تحسبا لقوة الغريزة التلقائية التى كان يمكن أن تدفع بالركاب فى مثل هذا الموقف إلى خارج الأوتوبيس فى هرج ومرج .

ومع الضوء الذى أضاءه الكمسارى ، ومع محاولته التحكم فى الموقف انقشع شعور الفزع الذى أصاب الركاب عند وقوع الحادث وحل محله شىء من الاطمئنان النسبى إلى أن هناك من قد يكون باستطاعته إدارة دفة الأمور بحكمة وتعقل بعد هذا الحادث الذى كاد يودى بحياتهم جميعا .

على أن أحدًا من الركاب لم يكن قد ألقى بالا لهذا الكمسارى قبل ذلك ، فقد كان جالسا هناك فى مؤخرة السيارة يقوم بعمله دون ضجة بل ـ كما كان يبدو فى ذلك الوقت ـ دون مقدرة فائقة أو لافتة للنظر .

ولكن أى مقدرة يمكن أن ينتظرها الإنسان فى عمل كعمل الكمسارى ؟ الأمانة ؟ ربما . . الدقة ؟ ربما . . وقد كان هذا الكمسارى يتصف بالدقة والأمانة معا ، ولكن هل سيكون بإمكانه أن ينقذ الركاب من هذا الموقف بعد أن انحرف الأوتوبيس وكاد يسقط بهم من فوق الجبل ؟

لقد عم الركاب جميعا فى تلك اللحظة شعور غامض بأنه ربما يكون القدر قد اختار هذا الكمسارى بالذات لإنقاذ الموقف الذى وجدوا أنفسهم فيه ولم يعرفوا للخروج منه سبيلا .

وبدأ الكمسارى يتحرك بعناية شديدة إلى مقدمة السيارة ليتبين ما إذا كان من الممكن إدارة المحرك من جديد وسط شعور غريب ألم بالركاب هو خليط من الإعجاب والدهشة فى آن واحد .

ووسط المحاولات المضنية للكمسارى للوصول إلى الأمام دون أن يخل بتوازن الأوتوبيس أخذ الركاب يتهامسون فيما بينهم وكان أول المتحدثين وأعلاهم صوتا هم اللائمون الذين ظلوا يعددون أخطاء السائق .

قالت إحدى السيدات :

ـ إن هذا السائق المجنون كان يتصور أن الطريق ملكه وحده يسير فيه كيفما يشاء يمينا ويسارا دون حساب .

وقال على الفور زوجها الذى كان دائما يتفق معها فى الرأى :

ـ فعلا . كان عليه أن يراعى أن الطريق ذو اتجاهين . لكنه لم يلق بالا للسيارات القادمة فى الاتجاه المضاد .

وهنا تدخل رجل آخر يضع على عينيه نظارة سميكة ويبدو موظفا بإحدى المصالح الحكومية :

ـ لا . . لا . . إنها السرعة . . لقد كان يقود السيارة بسرعة جنونية ولو أنه التزم بالسرعة المقررة لكان بإمكانه تفادى السيارة القادمة أمامه فى الاتجاه الآخر.

وانضمت سيدة تلبس ملاءة سوداء إلى المناقشة قائلة :

ـ اتجاه واحد إيه واتجاهين إيه ؟! إحنا عايزين نخرج من المصيبة اللى احنا فيها دى .

فرد عليها رجل من مؤخرة السيارة :

ـ يا منجى نجنا من اللى إحنا فيه . ياقادر على كل شىء .

وكان بين الركاب رجل ضرير غزا الشيب رأسه وزحفت التجاعيد إلى وجهه منذ زمن بعيد . . كان يلبس جلبابا متواضعا وفوقه بالطو بنى اللون وقد أراح ذقنه فوق ظهرى يديه المستقرتين فوق عصا غليظة أوقفها أمامه .

ظل الرجل الضرير يستمع إلى الجدل الدائر حوله دون أن يتكلم . . ثم عند لحظة صمت خلال المناقشة رفع الرجل رأسه من فوق عصاه ونطق قائلا :

ـ إن هذا الطريق ليس طريقنا .

ونظر الجميع إلى الرجل فى دهشة . . ولم تفهم السيدة ما قاله . . ولم يفهم زوجها أيضا . . ونظر إليه الموظف الحكومى فوجده ضريرا فلم يفهم هو الآخر. . واستمر الصمت لحظات تبادل فيها الركاب النظرات دون أن ينطق منهم أحد . . فقال الضرير :

ـ يبدو انكم لم تركبوا هذا الأوتوبيس من.قبل ولا تعرفوا الطريق الذى عليه أن يسلكه .

فردت عليه السيدة :

ـ إننا نركبه كل يوم منذ انتقلنا أنا وزوجى للسكن بالمقطم قبل أكثر من ٢٠ عاما . ورد زوجها على الفور :

ـ إننا نمضى ساعات طوال كل يوم من أيام الأسبوع فى هذا الأوتوبيس .

فسألهما العجوز :

ـ الم تلاحظا أن هذا الطريق ليس طريقنا ؟

فبدت على وجه السيدة علامات الدهشة وكذلك زوجها وقالت للعجوز :

ـ صحيح أننا نركب هذا الأوتوبيس كل يوم لكننا لانضيع وقتا طويلا فى النظر إلى الطريق مثل الأطفال الذين ينظرون من الشبابيك .

وقال زوجها :

ـ ليس لدينا وقت للنظر إلى الطريق .

فقال الضرير :

ـ إننى أركب هذا الأوتوبيس منذ افتتح الخط . وأعرف هذا الطريق عن ظهر قلب . أعرف كل انحناءة علينا أن نأخذها وكل عثرة علينا تفاديها . إن هذا ليس طريقنا .

ولم يسمع الضرير أى تعليق أو رد فعل لما قاله فقال من جديد :

ـ أقول لكم إن الطريق الذى سلكه السائق ليس طريقنا لقد انحرف

السائق عن الطريق وأنتم لا تدرون .

وهنا تدخل رجل فى مقتبل العمر كان يجلس خلف العجوز مؤكداً أن السائق كان قد اتخذ اليوم طريقا جديدا :

ـ لقد كنت أدرك ذلك تماما لكنى فى الحقيقة تصورت أنه ربما كان هناك إصلاح فى الطريق القديم أو أن السائق يجرب طريقا جديدا أفضل من الطريق القديم الذى أهلكتنا فيه المطبات .

فرد عليه شاب يجلس فى مؤخرة السيارة وقد بدت عليه علامات الانفعال :

ـ وهل يعقل أن يقوم السائق بالتجارب ، ومعه هذا العدد من الركاب ؟ هل هذا معقول ؟ ثم أليس هناك خط سير محدد لكل أوتوبيس عليه أن يسير فيه ؟ . . أم إن المسألة هكذا سداح مداح ؟

لكن الرجل قال له :

ـ لاتنس أنه كان السائق ، وأن المسئولية كانت مسئوليته هو ، وأنت قبلت أن تركب معه . . ولو أنه كان قد أوصلك بالفعل بهذا الطريق إلى حيث كنت تريد لما قلت ما تقوله الآن .

فرد عليه الشاب :

ـ لكنه أوصلنى وأوصل معى بقية الركاب إلى هذه المصيبة التى نحن فيها الآن . . ثم إننى لم أختر هذا السائق بالذات لأركب معه . . لقد كان على أن أركب الأوتوبيس على أى حال فهذا هو طريقى .

واحتدمت المناقشة من جديد فى الوقت الذى كان الكمسارى قد وصل بعد عناء شديد إلى مقدمة السيارة وأخذ يحاول إدارة المحرك دون جدوى . فصاح فيهم :

ـ كفى هذا الصراخ ولنحاول توجيه طاقتنا إلى ما يمكن أن يساعدنا فى إنقاذ الموقف بدلا من هذا الجدل العقيم . . لقد تأخر الوقت ولانريد أن نضيع ماتبقى من الليل فى تقطيع ملابس بعضنا البعض .

ولاحظ الكمسارى استجابة من جمهور الأوتوبيس فهدأ من نبرة حديثه وحاول أن يفهمهم مايقصده :

ـ لماذا تتصرفون وكأنكم متفرجون ؟ . . إن ما حدث لم يكن فيلما أو مسرحية نشاهدها ثم نتناقش حولها لنعرف من هو المخطئ ومن هو المصيب . . إننا جميعا شركاء فى هذا الطريق ، بل وشركاء أيضا فى المصير . . لن ينجو منا أحد ما لم تتحد جهودنا فى الاتجاه الصحيح قبل أن يطلع علينا الصباح .

وأحس الركاب من جديد بخطورة الموقف ، وبأنهم ليسوا أمام كمسارى عادى . وأحس الكمسارى بالدور الذى كان مقدرا له أن يقوم به ، فقال للركاب :

ـ من منكم يريد المساعدة فليأت معى . . أعتقد أننى أعرف ما ينبغى أن نفعله حتى ننقذ الموقف .

وعلى الفور نهضت مجموعة من الشباب كانوا يجلسون فى مؤخرة السيارة وقالوا للكمسارى :

ـ نحن معك .

لكن الكمسارى أمرهم بسرعة بالجلوس مرة أخرى قائلا :

ـ لايجب أن يأتى أحد إلى المقدمة وإلا اختل توازن الأوتوبيس وانزلق إلى الأمام بالركاب .

ونهض رجل آخر دون أن يترك مكانه وقال للكمسارى :

ـ إننى سائق فهل تريد أن أدير لك المحرك .

لكن الكمسارى قال له :

ـ لا . . إن المحرك به عطل ولن يدور .

فرد عليه الرجل :

ـ ربما أمكننى إصلاحه .

فقال الكمسارى :

ـ وحتى إذا أدرنا المحرك وتحرك الأوتوبيس فقد يقفز إلى الأمام فنهلك جميعا . فسألته السيدة :

ـ إذن ماذا تريد أن تفعل إذا لم تكن تريد أن يأتى أحد إليك لمساعدتك ولا تريد أن تدير المحرك ؟

وقال زوجها :

ـ نعم ماذا تريد ؟

فقال الكمسارى :

ـ إننى أريد سواعد الشباب منكم . . لن تنقذنا المحركات بل ستنقذنا سواعدنا القوية . . أريد منكم جميعا أن تغادروا السيارة من الخلف . . وبما إن الباب الخلفى قد تهشم فلن نستطيع فتحه . . علينا أن نخرج جميعا من أحد الشبابيك الخلفية .

سيكون على الشباب أن ينزلوا أولا ثم يحاولوا إنزال بقية الركاب من الشباك فى هدوء ونظام . . بعد ذلك من يريد منكم العودة إلى منزله فليفعل ذلك ومن يريد أن يبقى ليساعدنى فسأقول له ما ينبغى عمله حتى نعيد الأوتوبيس مرة أخرى إلى الطريق . وهنا صاح الرجل الضرير :

ـ لافائدة !

فنظر إليه الجميع فى فزع وكأنه نزير الشؤم فقال :

ـ لافائدة فى هذا الأوتوبيس . . لقد ضل الطريق ولم يعد فيه فائدة .

فصاح فيه أحد الركاب :

ـ ماذا تقول أيها العجوز المخرف ؟

وصاح آخر :

ـ ألا ترى أن الأوتوبيس قد سد الطريق تماما ؟ كيف نتركه هكذا ونمضى ؟

وحسم الكمسارى المناقشة التى كانت على وشك أن تحتدم من جديد قائلا :

ـ بعد أن ننزل جميعا سيتحتم علينا انتشال الأوتوبيس من هذا الوضع الخطر ودفعه مرة أخرى إلى أعلى حتى نفتح الطريق أمام بقية السيارات فى الصباح .

وما إن انتهى الكمسارى من حديثه حتى تحول الجميع إلى العمل فبدأ الشباب ينزلون واحداً بعد الآخر من الشباك الخلفى بحذر شديد حتى لايختل التوازن فيضيع جهدهم هباء .

ثم قاموا بعد ذلك بإنزال الركاب وحداً تلو الآخر حتى نزلوا جميعا من الأوتوبيس وطوال هذا الوقت كان العجوز الضرير ينظر إلى المشهد دون أن يتكلم وقد علت وجهه ابتسامة كتلك التى كثيرا ما ترتسم على وجوه العميان .

كان الكمسارى آخر من ترك الأوتوبيس وكان على العمل أن يستمر . فجمع الكمسارى الشباب وقال لهم :

ـ أمامنا مهمة شاقة وعلينا أن نرى إن كنا سننجح فيها . . علينا أن نحاول دفع الأوتوبيس إلى الخلف حتى نخرجه من هذاالمنحنى الخطر ونعيد عجلاته على الطريق .

وتحول الجميع مرة أخرى إلى العمل ، وتصبب العرق من الجباه ، وجفت الحلوق ، وتعالت الأنفاس وسط هذا الليل الحالك ، دون أن يتقاعس أحد أو يشكو .

وظل الجميع يعيدون المحاولة ، المرة تلو المرة لكن الأوتوبيس لم يتحرك من مكانه . . ظل كما هو فى عرض الطريق يغلقه كالمتاريس العسكرية .

ونظر الكمسارى إلى العجوز فوجده مازال يبتسم ، وكأن العجوز قد أحس بنظرات الكمسارى فقال له على الفور :

ـ لاتضيع وقتك يابنى ولا تبدد طاقات الناس مع هذه السيارة البالية . . لا فائدة . وفى لحظة نور وإلهام أدرك الكمسارى على الفور ما كان عليه أن يفعله . . وبدون تردد وقف وسط الركاب الذين أخذ العرق يتساقط من جباههم وعلت وجوههم علامات الإجهاد وقال لهم :

ـ لقد حاولنا إنقاذ الأوتوبيس ، وكان علينا أن نحاول ذلك بكل الطرق ، ولكن يبدو أن كلام عمنا العجوز هو الحق . . نعم . . إن علينا أن نتخلص من الأوتوبيس . . علينا أن نزيل هذه العقبة الصماء العنيدة ونفتح الطريق أمام السيارات وإلا فستواجه المنطقة كلها أزمة ضارية عندما يطلع النهار .

ورغم الإعياء الذى استحوذ على الجميع من جراء مجهود الساعات الماضية إلا أنه كانت قد نشأت بين الكمسارى والركاب علاقة ثقة واحترام من خلال المعاناة المشتركة جعلتهم يهمون جميعا إلى تنفيذ خطته رغم ما كانت تنطوى عليه من مجهود جديد .

ورفع الرجال مرة أخرى عن سواعدهم وبدءوا هذه المرة يدفعون بالأوتوبيس إلى سفح الجبل .

وكانت علامات الفجر قد بدأت تظهر فى السماء ، ولم يكن أمام الركاب وقت طويل لإتمام هذه المهمة فسرعان ما تطلع الشمس ويبدأ تدفق السيارات فى الطريق .

ولكن ماهى إلا دقائق حتى كان الأوتوبيس يتدحرج من فوق قمة الجبل ليلحق بسائقه ، وكأنه حيوان عجوز عفى عليه الدهر ولم يعد يصلح للعمل فذهب ليلقى حتفه . .

وما إن وصل الأوتوبيس المتهدج إلى أسفل الجبل حتى ارتطم ببعض الأحجار الهائلة فأحدث انفجارا مدويا تولدت عنه نيران أضاءت السماء ذاتها قبل أن تطلع الشمس .

ونظر الركاب إلى الطريق فوجدوه سالكا تماما وكأنه لم يشهد أى حوادث أثناء الليل ، فتبدد تعبهم . . وحمل الرجال الكمسارى على أكتافهم . وأخذت النساء يطلقن الزغاريد ، بينما كانت الطيور تصيح فى السماء معلنة مولد يوم جديد .

قتلت أمي




حلمي التوني 94

بمجرد وفاة والدى توليت الأمور العائلية باعتبارى أكبر الأبناء البالغ عددهم ١٥ ولدا وبنتا ، فقد سلمتنى والدتى المفاتيح التى كان يحملها أبى وبعض الأوراق (التى لا قيمة لها) وقال لى الإخوة والأخوات إنهم يعتبروننى منذ الآن ولى أمرهم .

لكن أحداً لم يخبرنى عن مكان الكنز .

كنت أعرف أن والدى كان لديه بعض المال الذى اشترى به ذهبا قبل وفاته لكننى كنت قد تركت المنزل الذى لم أعد أطيقه لأعيش بمفردى فلم أعرف أين وضع أبى الذهب .

جميع المفاتيح التى سلمتها لى أمى وكأنها تسلمنى مقاليد الحكم لم تكن تفتح إلا دواليب الخزين . . سمن وجبن ودقيق وأرز وفول وزيت ليس إلا .

أهذا هو الكنز الذى تركه لى والدى والذى أصبح الآن من حقى أنا باعتبارى كبير العائلة ؟ هل تسلمت ملكا خاويا ؟

سألت أمى يوما عن الذهب الذى اشتراه والدى قبل وفاته فقالت إن الكنز الحقيقى الذى أصبحت أملكه هو الحب الذى تكنه لى هى وأبناؤها لأننى أصبحت أتولى أمورهم بعد وفاة الوالد .

ولم أقتنع بمثل هذا الحديث العاطفى الذى يقال فى الروايات ولا يعنى شيئا فى الواقع ، فسألت جميع إخوتى وأخواتى لكنهم جميعا أنكروا أى معرفة بهذا الموضوع ، بعضهم أبدى دهشة من سؤالى والبعض الآخر ظن أننى أمزح ، أما أصغرهم جميعا فقد ظل يقول للجميع إننى جننت . هذا الوغد الخسيس إنه

يريد أن ينحينى ويأخذ مكانى لكى يحصل هو على الذهب .

حتى أمى بدأت تضيق بسؤالى المتكرر عن الذهب وأصبحت كلما سألتها : « أين الذهب يا أمى ؟ » قالت لى باستهزاء : « فى بطنى ! » .

هل هى تستخف بى ؟ أم إنها تقول الحقيقة ؟ لماذا لايكون الذهب فعلا فى بطن أمى ؟ لماذا لاتكون قد بلعته حتى تخبئه عنى وعن أبنائها ، ولكنها بقلب الأم تريد أن تقول لى الحقيقة رغما عنها فيذل لسانها وتقول : « فى بطنى ! » .

واليوم قررت أن أبقر بطن أمى بحثا عن الذهب .

السكين موجودة لقد أعطته لى أمى ضمن ما أعطته لى بعد موت والدى . وسأستخدم نفس ذلك السكين الذى كان والدى يذبح به الماشية المريضة قبل أن تنفق لكى أبقر بطن أمى واستخرج منه الذهب . لكن ماذا أفعل بأبنائها الذين يملئون البيت كالجيش ؟ ١٥ ابنا وبنتا . شعب بأكمله . ماذا أفعل بهم ؟

لقد دعوتهم جميعا لشرب الشاى بعد أن أذبت فيه الحبوب المخدرة لكى يغيبوا عن الوعى ولا يعودوا يدركون مايحدث من حولهم .

ولقد شربوا الشاى كما لم يشربوا من قبل . . شربوا الوهم وشربوا النسيان وهم يتصورون أنهم يشربون الشاى .

وفى منتصف الليل كانوا جميعا كالجثث الهامدة بما فى ذلك أمى التى كان بطنها الذى أنجب كل تلك الجثث يعلو ويهبط مع كل شخير يصدر عن أنفاسها المتهدجة . كان بطنها منتفخاً . هل كان دائما منتفخاً هكذا بسبب حملها المتكرر كل سنة ؟ . لابد أن عدد السنين التى قضتها وفى أحشائها طفل من هؤلاء الأموات يفوق تلك التى كانت فيها فارغة ، والآن هى حبلى من جديد لكن جنينها هذه المرة ليس جثة آدمية عفنة مثل تلك الجثث التى تحيط بها الآن فى سبات يشبه الموت ، لكنه الذهب الذى لايفنى ، هو المجد ثم هو جنينى أنا ، لايمكن لأحد أن يدعى أبوته غيرى أنا .

وحملت السكين فى يمناى وحملت فى يسراى خرقة قديمة حتى إذا صرخت

أمى أو استنجدت أسارع بسد أنفاسها حتى لايصحو أبناؤها من موتهم على صوتها .

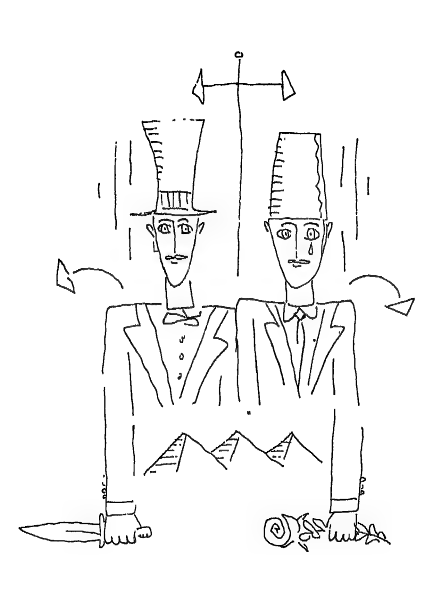
لكن أمى لم تصرخ ولم تستنجد ، فقط فتحت عينيها ونظرت إلى بين النوم والصحيان وتركتنى أفعل ما أشاء دون أن تتكلم ودون مقاومة ، لقد كانت هى التى أعطتنى الخنجر ثم هى التى أعطتنى الآن روحها عن طيب خاطر .

لكنها خدعتنى وضحكت على فقد كان بطنها خاويا مما كنت أبحث عنه لم يكن به ذهب . . فقط قلب وكبد وأحشاء ليس إلا .

والآن يقترب موعد الفجر وسيصحو أبناؤها . . ستنهض هذه الجثث من قبورها لترى ما فعلت بأمهم ، فماذا أفعل عندما تشرق الشمس ؟ عندما يفيق الأبناء ؟

الشاب الوطنى





كانت البلاد ترزح تحت نير الاستعمار البريطانى فى عصر الملكة فيكتوريا وكانت هناك حركة مقاومة وطنية قوية تناضل من أجل الاستقلال .

وكان أحد أبطال المقاومة شابا وطنيا من أسرة كبيرة عرفت بتعاونها مع الاستعمار ، ومثل معظم أبناء هذه الأسر تلقى الشاب تعليمه فى بريطانيا لكنه عاد منها ثائرا وانضم إلى صفوف المقاومة .

نعم طلق حياة الرفاهية التى وفرتها له عائلته وأصبح واحداً من المناضلين .

لم يعد يجد نفسه إلا بين رفاقه من الثوار ، فحديثه هو حديثهم واهتماماته هى اهتماماتهم وحياته هى حياتهم .

ولم يصدق أصدقاءه القدامى ما حل بصديقهم الأرستقراطى ، كيف يهجر مكانته الطبقية المتميزة لينضم لهؤلاء البسطاء ؟ كيف ينتهى به المطاف بعد دراساته فى أعرق الجامعات البريطانية إلى تبنى أفكار هؤلاء الخارجين على القانون ؟

إلى أن جاء يوم اعتقل فيه صديقهم الأرستقراطى وأودع السجن مع بقية الثوار فتأكد لهم أنه ضل الطريق بالفعل ، فقد اتضح أنه عنصر أساسى فى حركة المقاومة الوطنية التى كانت تعم البلاد فى ذلك الوقت فى شكل مصادمات دموية بين شباب الحركة والقوات البريطانية .

وعلى أثر تصاعد المواجهة بين الجانبين وازدياد حوادث العنف ضد القوات البريطانية قامت حكومة الملكة فيكتوريا باستدعاء مندوبها السامى وتعيين مندوب سام جديد هو الدبلوماسى الشاب سير فيكتور سمارت .

وعندما شاهد الشاب الوطنى صورة المندوب السامى الجديد فى الصحف للمرة الأولى لم يصدق عينيه ، فقد كان السير فيكتور هو نفسه « فيك » زميل دراسته فى بريطانيا ، وكان سبب دهشته أنه يعرف أن « فيك » رجل صادق وشريف ، وكما تشهد مناقشاتهما أيام الدراسة ، متعاطف مع حركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث ، فكيف يتم اختياره هو بالذات لتنفيذ سياسة القمع ضد المقاومة بعد فشل المندوب السابق ؟

وما إن وصل سير فيكتور إلى القاهرة حتى تقابل الرجلان وجرت بينهما حوارات ممتدة اكتشف الشاب الوطنى خلالها أن صديقه القديم لم يتغير منذ أيام الدراسة ، فهو يؤمن بحق البلاد فى الاستقلال ، بل ويقول إن السياسة التى ستتبعها حكومته هى إتاحة المجال أمام الاستقلال ، ولكن بشكل تدريجى حفاظا على المصالح البريطانية فى المنطقة .

وتوطدت العلاقة بين الصديقين القديمين وأخذ الشاب الوطنى يتحدث عن صديقه البريطانى فى كل مكان ويحث زملاءه الثوار على تفهم حقيقة موقف السير فيكتور . . الشاب ذى الوجه الحسن الذى يختلف عن الوجه القبيح لسلفه الاستعمارى العجوز .

وكانت أعمال السير فيكتور سمارت الذى أصدر بمجرد توليه منصبه الجديد عددا من التشريعات التى تتيح قدراً من الحريات للمواطنين ، تؤكد وجهة نظر الشاب الوطنى فيزداد اقتناعا بصديقه البريطانى ، وبالتالى يزداد عدد من يقتنعون به من زملائه الثوار .

وهكذا استطاع الشاب الوطنى خلال فترة قصيرة أن يقنع رفاقه بالعدول عن أعمال العنف ضد الرعايا البريطانيين والدخول فى مفاوضات سلمية مع السير « فيك» كما أصبحوا الآن ينادونه .

لكن بعض علامات الاستفهام ظلت تدور حول الدور الذى يقوم به الشاب الوطنى فى هذا الموضوع : هل وقع فريسة لانتماءاته العائلية القديمة ودراسته البريطانية ؟ فبالنسبة للكثيرين لم يكن المندوب السامى الجديد إلا

القفاز الحريرى الذى يغلف القبضة الحديدية التقليدية التى يفرضها الاستعمار على البلاد .

إلى أن جاء يوم ثارت فيه ثائرة البلاط البريطانى لإصابة أحد جنود صاحبة الجلالة على أيدى مجهولين من أبناء البلاد ، واتجهت الشبهات بالطبع إلى الثوار وعقد اجتماع طارئ لمجلس العموم البريطانى واستدعى السير فيكتور سمارت إلى لندن .

وكانت المفاجأة حين تحدث المندوب السامى فى مجلس العموم فتوعد المتمردين واتهمهم بالعمالة وأكد أنه لن يجدى معهم إلا القمع ، ثم طالب بضرورة إعدام جميع هؤلاء المخربين رميا بالرصاص فى أحد الميادين العامة حتى يستتب الأمن فى البلاد .

وكان لتصريحات الدبلوماسى البريطانى وقع الصاعقة بين صفوف المقاومة لكن أحداً لم يتألم لها مثلما تألم صديقه الشاب الوطنى الذى أغلق عليه بابه ولم يعد يقابل أحداً .

وعندما اقتحم عليه زملاؤه خلوته ذات مساء قال لهم فى هدوء : « لقد كنت أنتظركم ، وأعرف ما تريدون » .

وقبل أن ينطق أحدهم بكلمة شق الشاب الوطنى قميصه وكشف عن صدره قائلا : « هذا قلبى فاغمدوا فيه خناجركم ، لن أقاوم » .

لكن كبيرهم ابتسم فى سخرية وقال : « إنك دائما حسن الظن ، إننا لن نغمد خناجرنا فى صدرك وإنما سنذيقك ما كنت تسوقنا إليه ، ألم يطالب مندوب الاستعمار بإعدام الجميع ؟ ستكون أنت أول من ينفذ فيه ما دعا إليه صديقك البريطانى » .

وقبل أن ينطق الشاب الوطنى بكلمة قال له كبيرهم : « غدا صباحا سنقوم بتسليمك اقوات الإحتلال لتعدم فى ميدان عام كما طالب صديقك مندوب الإستعمار. »

ولم يحاول الشاب الدفاع عن نفسه ، فماذا عساه يقول ؟ هل يقول إنه ربما

فرضت الظروف على « فيك » أن يفعل ما فعل حتى تمر العاصفة ؟ ولكن ما الفائدة بعد أن قام « فيك » بنفسه بتحطيم الصورة البراقة التى كان قد رسمها لنفسه فى أعين جميع المواطنين .

وقام زملاؤه بتقييده دون أدنى مقاومة منه واقتادوه إلى مخبأ يمضى ليلته قبل أن يتم تسليمه للسلطات البريطانية فى اليوم التالى .

ولم ينم الشاب فى تلك الليلة . أخذت الدموع تنهمر من عينيه فى صمت . وفى اليوم التالى عندما جاءه الثوار كانت روحه قد فاضت . . ليس خوفا مما كان ينتظره من عقاب . . ولا قلقا على مصير حركة المقاومة فى ظل تلك الأوضاع الجديدة . . ولكن حزنا على ما أصاب صديقه . . مندوب الاستعمار البريطانى .




آلـــو!





آلو . . آلو . . من ؟ عادل ؟ غير معقول . . أهلا يا عادل . . أين أنت؟ . . أى دنيا ؟ لابد أنها دنيا غير الدنيا التى أعرفها ، لقد تصورت أنك سافرت أو ربما هاجرت إلى استراليا ، ها ها ها . . فعلا الدنيا تلاهى . .

لقد انشغلت أنا أيضا فى أشياء عديدة . . طبعا سعيدة . . أرجو أن تكون أنت أيضا سعيدا بحياتك الجديدة . . لا أكاد أصدق أننى أسمع صوتك ثانية . . أشعر أنك تتحدث من عالم آخر ، عالم نسيته تماما منذ أن . . منذ حوالى سنة . . لا ليس أحد عشر شهرا ، وإنما سنة وسبعة وعشرون يوما بالضبط . . على أى حال كل ذلك قد مضى الآن . . لقد نسيته تماما . . يعنى . . كان يسبب لى بعض الصداع فى البداية - صداع مزمن - ولكنى تغلبت عليه بعد ذلك وعدت إلى الحياة مرة أخرى . . لقد تغيرت حياتى تماما بعد أن . . منذ أن انفصلنا . .

آلو . . نعم يا عادل . . نعم أنا معك . . كيف حالك أنت ؟ . . صحيح؟ . . أنا سعيدة لك من كل قلبى . . ألف مبروك . . لقد كان حلمك دائما أن تعمل بهذه الشركة . . لابد أنك تسافر كثيرا للخارج . . آه تعمل بمقر الشركة هنا . . لم تسافر على الإطلاق ؟ . . والله يا عادل لقد تصورت طوال الوقت أنك سافرت . . لم أتخيل أبدا أنك فى نفس البلد . . أو حتى نفس الدنيا . . لا . . لا أقصد . . أنت تعرف معزتك عندى . .

نعم لقد مضى وقت طويل . . آه يا عادل إنك تذكرنى بما كنت قد نسيته . . لقد قلت لك يومها إن الحياة ستمضى رغم كل شىء . . طبعا

ذاكرتى فوبة . . قلت لك إننى لن أموت فإن الحياة بأكملها مازالت أمامى . . لا . . أنت لم تقل شيئا . . ولكن لم هذا الحديث الآن ؟ . . إننى سعيدة أنك اتصلت فنحن على أى حال صديقان . . تريد أن تدعونى ؟ (يا إلهى أهو عائد إلى؟) . . لا لم أقل شيئا . . كنت أحدث نفسى . . ماذا كنت تقول ؟ لى دعوة عندك ؟ . . دعوة غداء أم عشاء (يارب رفقا بى!!) . . نعم مازلت أفضل العشاء على الغداء . . فالعشاء لايكون إلا فى الليل . . والليل يسدل ستارا أسود على كل متاعب الحياة ولايعود الإنسان يرى إلا رفيقه الذى يجلس أمامه على مائدة العشاء تماما كما فى « المسرح الأسود » الذى يختفى من فوقه جميع الممثلين ولا يرى الجمهور إلا ما يحملون من أدوات بيضاء ، كم هو جميل ألا يرى الإنسان إلا مايريده من ألوان ! . . لم أتغير ؟ . . ربما فى آرائى فقط . لكن حياتى تغيرت تماما . . قل لى ياعادل ؟ هل مازلت تلبس أول حرف من اسمى حول رقبتك ؟ . . لا والله . . إنه مجرد سؤال عابر ليس وراءه سوى فضول نسائى برىء . . على كل حال هذا شىء انتهى ومضى كل منا إلى حاله .

آلو . . نعم أسمعك . . تريد أن تدعونى . . أين ياعادل ؟ (لا أكاد أصدق مايحدث لى) . . إن السعادة عندما تكون شديدة فإنها يمكن أن تكون مميتة تماما مثل التعاسة . . لماذا أقول ذلك ؟ لأننى سعيدة فى حياتى الجديدة . . أنت تعلم طبعا أن الحياة لاتتوقف يا عادل وهناك شىء يجب أن تعرفه . . إننى خلال العام الماضى التقيت بشخص آخر ووجدت أنه يحبنى حبا كبيرا جدا وأنا سعيدة جدا معه الآن وذلك طبعا يلزمنى ببعض الأشياء . . أقصد أن مسألة دعوتك هذه . . ماذا؟ أنت مصمم ؟ أين ؟ لا أصدق ياعادل . . نفس مكاننا القديم ؟ أتذكر كيف كنا نلتقى دائما فى الهيلتون ؟ حتى عندما كنا سنذهب إلى مكان آخر كنا نتقابل فى الهيلتون ثم نمضى من هناك . . هل تتصور أننى لم أستطع أن أدخل الهيلتون طوال العامالماضى ؟ . . أنت كما أنت يا عادل لم تتغير . . تقول أشياء كثيرة دون أن تتكلم . . (يارب

لقد استجبت لدعواتى . . لقد عاد إلىّ فعلا . . قلبى سينشطر . . أهذا حلم أم علم ؟) .

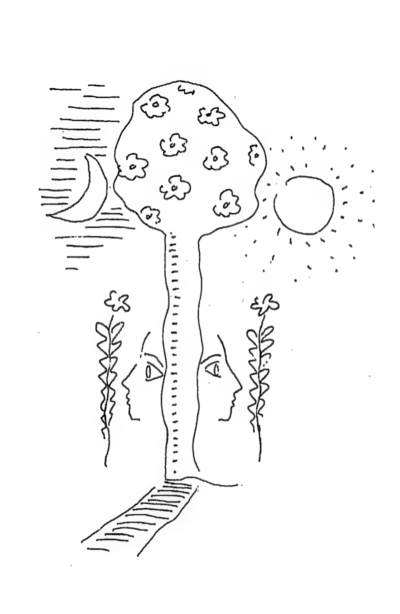
اسمع يا عادل لماذا لا تقفل السكة ثم تطلبنى ثانية ؟ . . ليس لديك وقت؟ . . آخرون تريد أن تدعوهم ؟ أين ؟ . . معنا ؟ لكنى أنا لم أقبل الدعوة بعد . . واثق أننى سأقبلها؟ . . أنت كما أنت لم تتغير . . واثق من نفسك دائما تعرف نقاط قوتك . . وتعرف أيضا نقاط ضعفى . . . لا لا تتحدث . . دعنى أنا أتكلم يا عادل . . يجب أن أعترف لك بشىء . . هذا الشخص الذى حدثتك عنه الآن لا وجود له . . لقد اختلقت هذه القصة لأحفظ كرامتى أمامك . . لا تقاطعنى يا حبيبى . . اسمع ما سأقوله لك ثم اقذف به إلى البحر بعد ذلك . . يجب أن أعترف لك بما تجيش به نفسى . . أريدك أن تسمع ياعادل فهذا حقك . . إننى لم أر أحدا منذ تركتنى . . لم يدخل أحد حياتى . . لم أسمح لأحد أن يحتل مكانك بداخلى . . كنت أعرف أنك ستعود . . وكنت أريدك أن تجد مكانك فى قلبى كما تركته دون أن يكون قد دنسه حب آخر . . لا . . أنا لا أتسرع . . كنت أريدك أن تعرف ذلك قبل كل شىء . . نعم سأسمح . . على أى حال لقد قلت ماعندى . .

آلو ؟ . . ماذا ؟ . . نعم أسمعك ، تقول إننى أول شخص تدعوه ، وكم من الأشخاص ستدعو بعدى ؟ . . هاها خمسمائة مرة واحدة ؟ . . سيكلفونك كثيرا إذا كنت ستدعوهم جميعا فى الهيلتون . . ماذا تقول ؟ فرح ؟ . . فرح من؟ . أنت ؟ . . تدعونى لفرحك ؟ . . فرحك أنت ؟ . . فرحك أنت ؟ . . نعم . . أنا معك . . . ابنة مدير الشركة ؟ . .

آلو . . آلو ؟ . . لا أسمع شيئا . . نعم . . أنا . . أنا . . لا أبدا . . مبروك . . نعم نحن صديقان . . نعم . . لا لا شىء . . لا . . لا أسمع . . لقد عاودنى ذلك الصداع . . الوداع . . .

وعادت الشمس





بعد ليل الشتاء الطويل عادت الشمس تدق بابى من جديد . . تدق بجرأة . . تدق بعنف . . كأنى لابد أن أفتح لها . . أقدم لها نفسى وحياتى لتعبث حرارتها بين جنباتى كما تشاء . . لا . . لن أفتح الباب .

مضى شتاء دافئ طويل خبأنى من رياح الطريق وأعاصيره العاتية فاعتدت حياتى ولم أعد أعبأ بالشمس ولا بالريح . . الليل هو الدائم الوحيد . . أما الشمس فلا تشرق إلا لتغيب . . فما لى بما هو مؤقت إذا كان لدى ماهو مستديم؟ كيف استبدل رفيقا دائما بضيف دائم الترحال ؟ لن أفتح الباب .

عادت الشمس تدق بابى من جديد . . أصرت على الدخول . . من تحت عقب الباب نفذ بعض من أشعتها . . من بين شقوق الجدران . . اخترقت حرارتها الهواء . . ألقت داخل ظلام البيت الهادىء ببقع من نور . . وأشعلت فى قلبى جمر الحنين .

قد عرفت الشمس من قبل . . دخلت بيتى من قبل . تخللت أشعتها كل خلجاتى حتى صارت حياتى كلها نورا . . لم تعد ترى فى حياتى الظلال . . تحولت حياتى إلى نهار دائم . . لا ليل فيها ولا غروب .

كم كانت عيناى تشتاقان فى بعض الأحيان إلى قدر من الظلام . . كم كانتا تشتاقان إلى النوم . . لكن من ذا الذى يستطيع النوم فى وهج النهار ؟ من ذا الذى يترك الضياء ليذهب إلى الظلام ؟

وأخذت أعب من الحياة عبا وأنهل من ضيائها أكثر مما يستطيع وجودى احتواءه . . كانت حياتى شهقة واحدة طويلة بلا زفير .

لكن فجأة بدون مقدمات ، ذهب الضياء وعم الظلام . . ذهبت الشمس دونما إنذار . . تركتنى لبرد الشتاء .

لم أفهم سبب الرحيل . . أخذت أسأل نفسى لماذا رحلت ؟ أين عساها تكون ؟ بحثت عنها فى كل مكان كالمجنون . . لكنى لم أجد سوى الظلام .

وبدأت اشعر بالوحدة . . بدأت البرودة تزحف إلى حياتى ودب فى قلبى شعور عارم بالرهبة والخوف . . الخوف من هذا الليل الطويل الذى ينتظرنى . الليل الذى لاحياة فيه . . الرهبة من الموت الذى سأحياه بعد أن فارقتنى الحياة .

وفى تشبث مستميت بالحياة التى أخذت تبعد عنى كما تبعد أمواج البحر عن رمال الشاطئ فى ساعات الجذر بدأت اجتر ذكريات الماضى حتى أستطيع أن أعيش الحاضر الأليم .

ومع مرور الأيام بدأت دون أن أدرى أعتاد الحياة بلا شمس ولا ضياء . . بلا أشعة ولا حرارة . . الحياة الهادئة الظليلة حيث يستطيع الإنسان أن يأمن على يومه وغده . . عارفا ماهو فيه الآن وما سيصير إليه غدا .

بدأت اشعر بدفء الشتاء الذى يتولد عن الطمأنينة والهدوء . . وإذا بحياتى تتحول تدريجيا من ساق أخضر صغير وسط عاصفة ضوء هو جاء . . إلى بناء راسخ القدمين . . شجرة خضراء عملاقة تضرب جذورها فى عمق التربة السوداء المظلمة . . وتتفتح الأزهار فوق فروعها بجميع ألوان الطيف . : زهرة وراء الأخرى تتفتح . . واحدة حمراء كشمس المغيب . . والثانية صفراء كسنابل القمح الذهبية . والثالثة بيضاء كالثلوج التى تكسو أعالى الجبال . . إنها شجرة الخريف والشتاء التى تنمو بعيدا عن وهج الشمس ولهيب أشعتها الحارقة .

توالت ليالى الشتاء الطويلة لكنى عرفت الحيلة الآن . . لم تعد تخيفنى الظلمات . . الظلام هو رفيقى الأكيد . . لم أعد أعانى وحدة الفراق . . أصبحت أعرف الآن أن الشمس لا تأتى إلا لتغيب . . فلتدق الشمس بابى كما تريد لن أفتح الباب .

إذا فتحت فسيقتحم النور روحى . . سيشتعل يومى بالضياء . . ستعود حياتى شهيقا عميقا بلا زفير . . سأعود أعب من الحياة كما أشاء . . سابحا فى بحر من نور . . ستعود أشعة الشمس تحملنى فى السماء . . سأعود أحلق حيث لم يصل طير ولا إنسان . . لكن ذلك لن يدوم . . ستختفى الشمس من جديد . . فجأة وبلا مقدمات . . كما فعلت من قبل . . كما تفعل دائما .

لكن لا شىء يدوم . لا الشمس ولا حتى الظلمات . . لا شىء دائم إلا هذا التغير والتبدل . . من النهار إلى الليل . . ومن الليل إلى النهار . . من المد إلى الجذر . . ومن الجذر إلى المد . . هذا هو الدائم الوحيد . . فلماذا يقف الإنسان عنيدا فى وجه الطبيعة ونواميسها .

إن عودة الشمس الآن شىء طبيعى كما كان اختفاؤها طبيعيا . . لذلك فهى ليست بحاجة لاعتذار كى تدق بابى كما تفعل الآن بل هى ليست بحاجة لاستئذان . . ستدخل الشمس حياتى من جديد سواء أردت أم أبيت . . ستقتحم روحى بقوة وعنف وسيسقط عنادى صريعا أمام دفء أشعتها المضيئة كما تتهاوى أسوار المدينة أمام الغازى الجبار .

أعرف أن الشمس ستتركنى ثانية كما تركتنى من قبل . . لكنها قبل أن تفعل ذلك ستكون قد أشعلت وجودى بنورها للحظات قد تقصر أو تطويل فبعد الليل يجب أن يأتى النهار . . هذه هى سنة الحياة . وها قد ذهب الآن الليل وعادت الشمس تدق بابى . سافتح لها الباب .

السـرطـان



أزعم أننى اكتشفت نوعا جديدا من السرطان أشد فتكا من المرض المعروف بهذا الاسم وأكثر خطرا : إنه السرطان البشرى .

ذلك المرض الذى يتولد عن علاقة إنسانية فيستبد بالإنسان إلى أن يقضى عليه تماما .

هو ذلك المرض الذى يتضخم فى جسد الإنسان فيضغط على بقية الأعضاء حتى يكاد يسحقها .

إنه المرض الذى لا يجدى معه البتر أو الاستئصال بعد أن يكون قد انتشر واستشرى ليس فى الجسد فقط ، وإنما فى كيان الإنسان ذاته ثم يفتك به بعد ذلك .

نعم اكتشفت هذا المرض فقد أصابنى منذ شهور قليلة والآن ها أنا انتظر نهايتى !

رأيت محاسن لأول مرة عندما كنت مارا بسيارتى أمام أحد الملاهى المعروفة بشارع الهرم ، كانت واقفة أمام مدخل الملهى ولم أكن قد رأيت أحدا بمثل هذا الجمال من قبل ، ولست أعرف ماذا أصابنى بالضبط لكنى وجدت نفسى أعود أدراجى مرة أخرى بعد أن كنت قد تخطيت الملهى لأنظر إليها من جديد : كانت ترتدى فستانا أسود بسيطا لكنه عارى الصدر والكتفين .

لم أستطع أن أمكث طويلا أمام الملهى فلم تكن لى خبرة سابقة بحياة الليل والملاهى ، وأحسست بشىء من الارتباك عند مرور أول سيارة من خلفى وإضاءتها الأنوار المبهرة عند اقترابها من سيارتى الواقفة أمام الملهى ، فضغطت

بسرعة على بدال البنزين وانطلقت مسرعا من أمام الملهى .

ولكن بعد أن أختفى الملهى من أمامى بأنواره الملونة ظهرت فى مخيلتى من جديد صورة تلك الفتاة ذات الرداء الأسود ، فوجدتنى فجأة أخشى من أن تكون تلك المرة هى الأولى والأخيرة التى يقع نظرى عليها . . لماذا لا أعود لأنظر إليها مرة أخرى قبل أن أذهب لذلك المريض الذى كنت ذاهبا لزيارته بشارع الهرم ؟

وعدت أدراجى مرة أخرى فى الشارع إلى حيث كانت تقف محاسن متمنيا أن أجدها مازالت فى مكانها وللحظة ساءلت نفسى : هل أنا مدرك لما أفعل ؟ ماذا أريد بالضبط ؟ هل سأنظر إليها فقط . . نظرة أخيرة ؟ أم إننى أريد التحدث إليها ؟ إننى لم أقابل فى حياتى واحدة من بنات الهوى ولا أعرف ماذا يقال لهن فى مثل هذه المواقف ؟ هل أتحدث إليها كما كنت أتحدث إلى صديقاتى القديمات قبل الزواج أم إن هناك أسلوبا آخر ؟

ووجدتنى قد تماديت فى تفكيرى بأكثر مما يجب وبهرتنى أضواء الملهى من جديد، لكنى أدركت أنه يجب أن أترك هذا اللهو وأستمر فى طريقى إلى منزل ذلك المريض . .

وقبل أن أقوم بأى حركة وجدت محاسن فجأة تجلس إلى جانبى فى السيارة ، نعم هكذا بدون مقدمات فتحت باب السيارة ودخلت لتقول « مساء الخير ! » .

كانت محاسن قد اتخذت لى القرار الذى لم أستطع اتخاذه وحدى . . فوجدتنى أنطلق بالسيارة بأقصى سرعة .

لم نتبادل أى كلمات وبعد لحظات أرادت محاسن أن تقطع الصمت فسألتنى تحت أى برج ولدت وبمجرد سماع ردى أو ربما قبل أن تسمعه قالت على الفور إننا سنتفق تماما ، فهى قد ولدت تحت برج السرطان وهو برج لايتفق إلا مع القليل من الأبراج ومن بينها برجى .

وكأنما كان ذلك كل مايهمها معرفته فساد الصمت بيننا من جديد ولكن عندما ضمنا الفراش فى تلك الليلة الباردة من شهر نوفمبر لم نتوقف عن الحديث إلا عندما أطلت علينا شمس اليوم التالى تسألنا عما نفعل فى وضح النهار وتذكرنى بأن لى بيتا وأولادا وعملا يجب أن أذهب إليه .

فى تلك الليلة خلعت محاسن رداءها الأسود العارى الصدر والكتفين فظهر جسدها الأبيض ، ومسحت مساحيقها الكثيفة فأطلت روحها تقول لى : أنقذنى مما أنا فيه .

لقد حدثت لكل شاب فى سن المراهقة تلك القصة القديمة حين تعرف لأول مرة فى حياته على بائعة الهوى فكان سؤاله الساذج : ما الذى جعلك تصبحين هكذا ؟ وقد سمعنا جميعا الرد التقليدى : « إننى أجرى على أولادى بعد أن توفى زوجى » أو « إن والدى توفى وتزوجت والدتى من بعده من شخص قاسى القلب . . . » إلى آخر تلك الروايات التى طالما كانت مادة جيدة للأفلام المصرية فى الأربعينات .

لكن تلك ليست قصتى ، إننى رجل تعديت الأربعين وأعتقد أننى وصلت إلى درجة من الخبرة بالحياة تجعلنى محصنا ضد مثل هذه السقطات الساذجة التى قد تحدث للشباب . . كما أن أسرتى تستحوذ على قدر كبير من وقتى واهتمامى فلست ممن لديهم فراغ عاطفى يجعلهم يقعون فريسة سهلة لأول شخص يظهر لهم قدرا من العطف أو الاهتمام . . ثم إن لى مركزا اجتماعيا مرموقا يكاد يحدد لى نوعية الأشخاص الذين بإمكانى أن أظهر معهم فى الأماكن العامة ، فأنا طبيب جراح أملك مستشفى خاصا يأتيه المرضى من جميع أنحاء الوطن العربى لما له من سمعة طيبة واحترام .

ولكن ما معنى كل ذلك وماجدواه أمام عينى محاسن وماكانت تقوله لى عيناها فى كل مرة كنت ألقاها ؟

لقد أصبحت أرى محاسن كل أسبوع بشكل لا إرادى ثم مرتين فى الأسبوع ثم كل يوم .

وعلمت الكثير عن محاسن : علمت أنها انجرفت فى هذا التيار حديثا وأنها من عائلة فاضلة فوالدها زار بيت الله أكثر من مرة ووالدتها لاتكاد تترك سجادة الصلاة وأخوها يقضى كل وقته فى الرياضة وهو عضو فريق الكرة بأحد النوادى .

تحت مساحيق محاسن وثوبها الأسود وجدت ـ أو هكذا خال لى ـ كيانا صافيا رقراقا كمياه الأنهار ، وفى كل مرة كنت أقابل محاسن ، وفى كل مرة كان يسقط ثوبها الأسود ذو الصدر العارى والكتفين كان يظهر جسدها المرمرى وكانت تطل روحها من عينيها تقولى لى فى صمت : « انتشلنى مما أنا فيه » . . كانت عيناها تقولان لى ـ وما أكثر ما قالتاه لى ـ إنها تتشوق إلى حياة جديدة كحياة سائر الفتيات .

لقد كانت تعرف أنها جميلة وكانت تعرف أيضا أن جمالها كان سر تعاستها ، فهى لاتذكر أبدا أن وقع نظر رجل عليها دون أن يشتهيها ودون أن يعرض عليها كل ماتريد . . لكنها كانت تبحث عن رجل لايستهويه جسدها وإنما تجذبه روحها . . . هكذا قالت لى محاسن .

وعلمت ـ ولم تكن معلوماتى كلها من محاسن ـ ماكان يكفى لتأكيد إحساسى بما يعتمل فى نفسها وماكانت تصبو إليه فقررت أن أساعدها .

هناك من يمنحون أنفسهم للعلم أو للرهبنة أو للوطن دون أن يكون لهم شاغل آخر ، أما أنا فقررت أن أكرس وقتى كله لمحاسن . . إن إنقاذ حياة إنسان واحد وانتشاله من الرذيلة إلى الفضيلة ومن التردى إلى الكمال يتساويان مع أى قضية عامة يمكن أن يكرس لها الإنسان حياته .

وبدأت مع محاسن من البداية تماما ، ماذا ينقصها ؟ المال ؟ جعلت لها راتبا شهريا يكفى احتياجاتها الأساسية ، ثم ينقصها التعليم الذى حالت ظروفها العائلية دون إتمامه . . فاتفقنا على أن تنتظم بأحد معاهد الدراسة ، وكنت أراجع معها دروسها بنفسى . ولقد فاقت محاسن جميع توقعاتى ، لم أكن أصدق عينىَّ وأنا أراها تأخذ كتبها وتذهب للمعهد لتتلقى الدروس .

لكن كم كانت تساورنى الشكوك فى تلك الساعات القليلة حين لا أكون

معها ، لم أكن أعرف أين تذهب ، كنت أعرف مواعيد دروسها الخصوصية وكنت أذهب إلى المعهد دون أن تدرى لأرى ما إذا كانت ستأتى للدرس أم لا، وفى كل مرة كنت أجدها هناك فى الموعد المحدد فتتبدد شكوكى ، وكنت أذهب أيضا إلى ذلك الملهى بشارع الهرم والذى كانت الساعات التى تقضيها فيه أكثر من تلك التى كانت تقضيها فى بيتها لكنى لم أكن أجدها وكنت أسأل عنها فيقولون لى إنها لم تعد تأتى .

وتغيرت حياة محاسن فى ظرف شهرين فقط وتغير مظهرها فلم يكن أحد من معارفها القدامى يتعرف عليها من النظرة الأولى ، لكنى كنت أعلم طوال الوقت أنها لابد ستضعف فى يوم ما ولم أكن أخاف من ذلك فهى لم تتجاوز الرابعة والعشرين ، والإغراء سيكون قويا ، وكنت أقول لها ذلك بصراحة . فطريق التقدم ليس خطا مستقيما ، وإنما هو خط متعرج فيه الصعود والهبوط لكنه بكل انحناءاته الصاعدة والهابطة يتجه إلى أعلى . . قلت لها : « قولى لى عندما تخطئين وسأقف إلى جانبك وسأساعدك » .

وبالطبع حدث ماكنت أتوقع . . ولم أنقض وعدى كنت أساعدها فى كل مرة على العودة إلى الطريق السليم من جديد . . فى بعض المرات كانت هى التى تعترف لى بخطيئتها ، ومرات أخرى كنت أنا الذى أكتشفها حين كنت أجوب المدينة كالمجنون أبحث عنها خلال الساعات القليلة من اليوم التى لم تكن معى فيها فأرى مالم أكن أود رؤيته .

وبدأت اكتشف أن حياتى تحولت تدريجيا إلى جحيم لايطاق ، لا ليس هو الحب ما أشعر به . هو شىء مختلف . . هو أقرب إلى المرض الذى يستحوذ عليك دون أن يكون لك حيلة إزاءه . . لقد كنت أرى محاسن فى كل شىء أمامى : فى وجوه أعضاء مجلس الإدارة بالمستشفى والذين لم أعد أفهم مايقولون، فى أجساد المرضى فى حجرة العمليات ، كنت أسمع صوتها فى أحاديث ضيوفنا على العشاء وكنت أراها فى عينى زوجتى وهى تسألنى عما أصابنى ، كنت أقضى الليل ساهرا أراجع ماقالته لى فى ذلك اليوم وماقلته لها وأسائل نفسى أهى صادقة أم إننى ساذج ؟

إلى أن جاء يوم قام بوليس الآداب بمداهمة الملهى الليلى وعلمت أنه قد تم القبض على محاسن فى الملهى وهى تجالس أحد الأجانب ، وصعد الدم إلى رأسى وصرت كالمجنون ليس غضبا من محاسن ولكن خوفا عليها . . وتغاضيت عن أى اعتبارات أخرى وتدخلت للإفراج عن محاسن ، فعلتها دون أن أفكر فى أى شىء آخر إلا مصلحتها الشخصية . . وعادت محاسن مرة أخرى إلى الدراسة والاستقامة بعد مواجهة عنيفة بيننا لم أحاسبها فيها عمافعلته بى ، وإنما عما فعلته بنفسها .

وتكررت هذه الواقعة حين كنت أقوم أنا وليس بوليس الآداب بمداهمة الملهى . . وفى كل مرة كانت تأتى معى محاسن كالحمل الوديع لتعدنى والدموع فى عينيها بأنها لن تعود إلى هذا الطريق مرة أخرى .

وبالفعل لم أكن أجد محاسن بعد ذلك فى الملهى الذى أصبحت الآن أمر عليه بطريقة شبه منتظمة وتصورت أننى نجحت ، بل إن محاسن هى التى نجحت فى أن تخلع ثوبها الأسود القديم العارى الصدر لتعطى لمحاسن الحقيقية الفرصة لأن تنمو وتزدهر فيكون لها ماكانت تريده دائما من حياة شريفة ومحترمة .

ولكن بين أن وآخر كان يستبد بى ذلك الشك ويستشرى فى كيانى تماما مثل ذلك السرطان الخبيث الذى لايعلم منه المريض إلا الألم الذى يسببه له والذى يقف الطب حياله مكتوف الأيدى . . نعم كان هذا بالضبط هو شعورى . آلام مبرحة فى كيانى كله ، واستحواذ كامل على تفكيرى ووجدانى . . هل هى آلام الحب نفسه والتى بدونها لا يكون الحب حبا ؟ . . أم إنها آلام الشك الذى لايترك لى لحظة راحة واحدة لا فى الليل ولا فى النهار ؟ . . أم إنها آلام مرض أصبت به وليس له علاج ؟

إنها ليست قصة تاييس التى ظن الراهب أنه يستطيع هدايتها إلى الطريق القويم فغوته هى إلى الرذيلة . . ولا هى قصة بيجماليون الذى صنع حبيبته بيديه تمثالا جميلا ثم طلب من الرب أن تدب فيه الحياة فأجابه الله إلى طلبه

لكنه برغم حبه العظيم لحبيبته ورغم أنه هو صانعها لم يستطع أن يستحوذ على قلبها . ولا هى عقدة لولبتا التى يقع بعض الرجال فريسة لها حين يتقدم بهم السن فيتجهون باهتمامهم إلى الفتيات فى سن المراهقة .

حالتى لبس توصيفها فى عالم الأدب وإنما تشخيصها فى مجال الطب . هى مرض من تلك الأمراض التى تعرف فى الطب الحديث باسم «سايكوسوماتيك» والتى لاتكون عضوية أو نفسية ، وإنما هى عضوية ونفسية فى آن واحد . . إنه سرطان من نوع جديد يستحوذ على الإنسان ويتغذى عليه جسديا ونفسيا فى نفس الوقت .

كان قد مضى حوالى شهر على آخر مرة ذلت فيها محاسن ووعدت ألا تكررها وطوال ذلك الشهر لم تكن محاسن تذهب إلى الملهى ، لكن مع ذلك كنت أحس بأن هناك شيئا ما تخبئه عنى .

وذهبت إلى المعهد ووقفت داخل باب العمارة المقابلة لمبنى المعهد لكى أراها دون أن ترانى وانتظرت لمدة ساعة كاملة لكنى لم أرها بل رأيت إحدى مريضاتى التى دخلت العمارة التى كنت أقف بداخلها ولابد أنها استغربت اختبائى هكذا فى مدخل العمارة .

وفى المساء ذهبت للملهى وكالمعتاد لم أجدها هناك ، لكنى وجدت إحدى صديقاتها القديمات والتى وجدت من الحاحى فى السؤال عن محاسن أننى فى حاجة ماسة إليها فقالت لى الصديقة : ماذا تعطينى لو قلت لك عن مكان صديقتك ؟ ولا أدرى ماذا بدا على وجهى من تعبير فقد قالت لى وقد استبد بها الذعر : « ماذا ألم بك ؟ » ثم أضافت مباشرة : « على أى حال لن أحيّرك كثيرا ، لقد نقلت محاسن نشاطها إلى حانة أخرى لكنى لا أعرف أسمها . »

ولم أشكر تلك الغانية العجوز التى تستطيع أن تبيعك أى شىء مقابل المال حتى ولو كان ذلك الشىء هو تعاستك ، لم أشكرها ولم أودعها فقط تركتها وانصرفت بسرعة حتى لاأطبق على رقبتها انتقاما على ماقالته لى من كذب وإفتراء .

ثم جاءنى أحد الأشخاص الذين كنت أدفع لهم راتبا شهريا ليأتونى بأخبار محاسن ليخبرنى هو الآخر بأن الملهى الذى تذهب إليه الآن هو ملهى جديد من الدرجة الثالثة ، وإنها هناك تقابل جميع معارفها القدامى . . أسماء كثيرة كنت أعرفها وأعرف عنها الكثير ، مما كانت تقصه على محاسن أحيانا فى شكل اعترافات وأحيانا أخرى فى شكل نوادر وذكريات .

وقال لى مبلغى إنه بإمكانه أن يخبرنى مسبقا باليوم الذى ستذهب فيه محاسن إلى ذلك الملهى لكى أراها هناك بنفسى إذا شئت .

وكانت تلك هى لحظة الحسم ، اللحظة التى يقرر فيها الجراح أن العملية يجب أن تتم على وجه السرعة قبل أن تحدث مضاعفات غير مأمونة العواقب فقد فشلت جميع أنواع العلاج . .

وهكذا قررت أن أجرى العملية التى تجرى فى حالات السرطان : الاستئصال ! نعم قررت أن أستأصل محاسن من حياتى ، سأنفصل عنها ، لن أراها بعد اليوم ، سأضع بنفسى نهاية لهذه العلاقة التى أصبحت تستنزف كل كيانى .

كم من المرضى تم استئصال أجزاء مختلفة من أجسادهم خلاصا من هذا المرض الخبيث ، منهم من استأصل طحاله أو أمعاءه ومنهم من استأصلت ثديها . . لقد قمت بنفسى بإجراء عملية جريئة كانت حديث الأوساط الطبية منذ سنوات حين جاءنى رجل اكتشفت أنه مصاب بسرطان الجلد ، وكان المرض مركزا فى جلد وجهه فقمت بإجراء العملية واستأصلت جلد الوجه بالكامل ثم أجريت لوجهه عملية ترقيع من جلد الفخذين وشفى الرجل تماما ولم يعاوده المرض بعد ذلك .

والآن جاء الوقت لكى أجرى العملية لنفسى . . صحيح أننى سأستأصل قلبى نفسه ، لكننى سأشفى وسأعود معافى سليما إلى عملى الذى كنت قد هجرته . . وإلى بيتى الذى كنت أدخله وأخرج منه دون أن أشعر بمن فيه . . وسأعود إلى الحب مرة أخرى . . الحب الذى يجعل الحياة جميلة ويدفع الإنسان

دائما إلى الأمام . . الحب الذى كانت تحيطنى به أسرتى من كل جانب وكنت أخاف أن أنظر إليه حتى لايلهينى عن محاسن . . باختصار سأعود إلى الحياة .

كنت أعرف مقدما أننى سأمر بفترة صعبة فى البداية ، فترة النقاهة ، لكنى كنت أعلم أيضا أننى بعد ذلك سأسترد شهيتى للحياة ، سأعود فأرى الخضرة فى الأشجار وأرى النجوم فى السماء .

اتخذت قرارى وسافرت خارج القاهرة حتى لا أرى محاسن فيتبخر غضبى كما كان يحدث فى كل مرة حين كانت تتوسل إلى ألا أتركها دون أن تفتح فمها أو تتفوه بكلمة واحدة .

كم راجعت نفسى طوال تلك الأيام التى قضيتها بعيدا عن القاهرة : ألم يكن من الأفضل أن أساعد هذه المخلوقة المسكينة بدلا من أن أتركها هكذا تتحطم كالسفينة التى هجرها ربانها فى بحور غير آمنة ؟ . . لكننى كنت أعود وأتذكر أننى ساعدتها كما لم يساعدها أحد من قبل ، وأتذكر أيضا أنها خدعتنى وخانتنى مع أناس كانت تعرف مقدار ازدرائى لهم ، لقد قررت بنفسها أنها تفضل صحبتهم على أى شىء آخر ، وكان كل إنجاز لها فى حياتها الجديدة معى يصب فى النهاية مع هذه الصحبة السيئة التى لا أقبل أن تشاركنى فى محاسن . . لقد طعنتنى محاسن فى رجولتى وفى كبريائى حين أشركت هؤلاء الأشخاص فى حياتنا . . لقد كانوا على علم بكل ما كان بين صديقتهم وذلك الجراح الأبله الذى كان يغمرها بالهدايا ويأخذها للطبيب للعلاج ويراجع معها دروسها .

لا ليس هناك علاج سوى البتر والاستئصال! لن أذهب إلى ذلك الملهى الرخيص ، لن أطأ بقدمى ذلك المكان الموبوء ، ولن أواجه محاسن ، ماذا سأقول لها ؟ إنها تعرف ما سأقوله لها فإما إنها ستنكر ماحدث وهذا سيؤكد اقتناعى بأنها تكذب على وإما إنها ستعترف ونبدأ القصة من جديد إلى أن نصل إلى الذلة القادمة . . فما فائدة مواجهتها بذلك وتكرار محاولة إعادتها للطريق القويم مرة أخرى ؟

وانقطعت عن محاسن لأول مرة منذ عرفتها . . ومضت الأيام طويلة ومريرة وأنا أقاوم . . لم أستجب لمحاولاتها المتكررة لمقابلتى . . ولم أستجب لما كان ينتابنى بين الحين والحين من تصور بأننى سأستريح أكثر إذا رأيتها مرة أو مرتين حتى يصل الموضوع إلى نهايته بشكل تدريجى .

لقد كنت أعلم أن حالتى لن يجدى معها إلا الاستئصال ، لذلك لجأت للجراحة وأجريت العملية وانتظرت انقضاء فترة النقاهة . . ستأخذ أسابيع ليس أكثر لكنها ستنقضى .

ومضت الأسابيع ، ومضت الشهور دون أن أرى محاسن ، لكن إحساسى بالألم ظل كما هو لم يتغير ، ماذا حدث ؟ هل فشلت العملية ؟

لقد استحوذت محاسن بعد أن تركتها على جسدى ووجدانى وقلبى وروحى كما لم تفعل من قبل فزاد حبى لها وازداد قلقى على مصيرها . . ألم يكن من الأفضل أن أساعدها بدلا من أن أتركها هكذا ؟ . . وأعود فأتذكر ماكانت تقوله لى من أننى لو تركتها فإن حياتها ستتحطم ، وأشفق عليها ، ثم أتذكر أيضا أنها خدعتنى ، لكنها أضرت بنفسها أيضا فكيف أحاسبها على مافعلته بى أنا ؟

لقد سيطرت محاسن على حياتى بعد أن تركتها أكثر من ذى قبل فأصبحت لا أفكر إلا فيها ولا أرى أمامى سواها ، إننى أخجل من سرد تفاصيل يومى الذى أبدؤه بقراءة حظها بالصحف تحت برج السرطان والذى كانت تحرص على قراءته كل يوم لأعرف ما إذا كان يومها سيكون « يوم سعيد » أم إنها «ستواجه مشاكل» أو أنها « ستسافر » أو إنها « ستتلقى رسالة من بعيد » أو إن « المياه ستعود إلى مجاريها » إلى آخر هذه الجمل التى حفظتها عن ظهر قلب . . ويمضى بقية يومى على نفس المنوال فأخرج هائما على وجهى ، أسير فى نفس الطرقات التى كنا نسير بها وأزور نفس المطاعم التى كنا نأكل بها وأتذكر حديثها إلى وماكانت تقوله لى محاسن بعينيها ! كم تحدثت إلى روحها من خلال

عينيها ! مازلت أنظر فى واجهات المحلات لأرى ماذا يناسب محاسن من ملابس أو ما يمكن أن تقرأه من كتب ، لقد كانت قد بدأت تكون لنفسها مكتبة صغيرة من بعض الكتب التى كنت أنتقيها لها بحيث تكون مفيدة لثقافتها العامة دون أن تصيبها بالسأم .

لم أعد الآن أذهب إلى المستشفى فلم أعد أقوى على إجراء العمليات بعد أن أصبح المشرط يرتعد فى يدى من شدة خوفى مما يمكن أن أرتكبه فى المريض من هفوات خطيرة . . ولم أعد أمضى أى وقت فى بيتى بعد أن أصبت بالصمم والبكم حيال كل ماتقوله لى زوجتى أو أولادى .

لقد اكتشفت بعد انقضاء تسعة أشهر أن المرض لايزال بداخلى . . بل هو ينشط أكثر من ذى قبل . . فمع كل يوم جديد يستشرى حب محاسن أكثر فى كيانى وتصاحبه آلام مبرحة فى جسدى وروحى لم تعد تجدى معها المسكنات . . لقد كانت محاسن هى المسكن الوحيد لهذه الآلام وهاهى الآن بعيدة عنى فماذا أفعل بهذه الآلام التى لا قبل لبشر بها؟

لم يجد العلاج .

لم يجد الاستئصال .

لم تجد النقاهة .

نعم لقد فشلت العملية ، لأول مرة فى حياتى أجرى عملية فاشلة . . لقد نسيت حقيقة طبية هامة وهى أنه فى بعض حالات السرطان المتقدمة فإن الجراحة لاتقضى على المرض ، وإنما على العكس تنشطه . . وفى مثل هذه الحالات فإن دور الطب ينتهى ويصبح الخلاص الوحيد للمريض من آلامه هو حين يقضى الله أمرا كان مفعولا !



السحلية والقمر

(قصيدة منثورة)



فئران وصراصير
قطط وكلاب .
الخرابة خالية .
سحالى وثعابين
قمر وسحاب .
أنيابه ناصعة البياض
أبيض أيضا القمر والسحاب .
الخرابة خالية .
القمامة والأوراق
الأحجار والأعشاب .
لحم آدمى أبيض
كى تغوص فيه الأنياب .
له ناب واحد مسوس .
حجر جيرى أبيض
جرشه بأنيابه فتفتت
مسحوق أبيض
يغطى شعر صدره الكثيف .
الخرابة خالية .
عواء الكلاب
خرفشة السحالى
فحيح الثعابين .
جسد أبيض عارى

ونظرات جائعة .
له ناب واحد مدبب .
رقبتها بيضاء
أبيض أيضا السحاب
وأحجار الجير.
جسدان أبيضان عاريان
شفتاه تلتصقان برقبتها
رقبتها ناعمة .
له ناب واحد طويل .
على الجدار المهدم
سحلية بعين واحدة
تنظر إلى القمر
وتغنى أغنية الحنين .
نابه يغوص فى رقبتها
والسحلية تغنى .
رقبتها بيضاء
وكذلك القمر .
جسدان عاريان وسط الخرابة
والسحلية تغنى .
ناب طويل مسوس
يخترق لحما آدميا أبيض .
سائل متدفق
يصبغ كل شىء
بلونه الأحمر
نابه غاص تماما
لم يعد هناك ناب .
لسانه يلعق

وشفتاه تمتصان الحياة
والسحلية تغنى .
لعاب أحمر يسيل من فمه
فيختلط بمسحوق الجير الأبيض
على شعر صدره الأسود
فيصير كل شىء أحمر .
أحمر القمر
وأحمر أيضا السحاب .
جسدان أحمران عاريان
تظللهما شجرة بلا أوراق
شجرة حمراء
عواء الكلاب أحمر
وعين السحلية حمراء .
كل شىء يذوب
فى بحر أحمر كبير .
لم يعد هناك لحم ولا لسان
لم يعد هناك رقبة ولا أنياب
لم تعد هناك خرابة ولا كلاب .
وصوت السحلية
ضاع وسط السحاب .

رقم الإيداع ٩٨٥٨ / ٩٤
I.S.B.N 977-09-0241-1

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس ٣٩٣٤٨١٤٠
بيروت : ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩٠ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣



باب التوفيق



محمد سلماوى

تتنوع قصص « باب التوفيق » قدر تنوع الموهبة الأدبية لمؤلفها . . فمحمد سلماوى كاتب مسرحى متميز اتخذت أعماله على مدى أكثر من عشر مسرحيات حتى الآن مسارا محددا لايمكن أن تخطئه . . من « فوت علينا بكرة » إلى « سالومى » ومن « اثنين تحت الأرض » إلى « الزهرة والجنزير » وهو أيضا كاتب روائى مقتدر وصف النقاد روايته «الخرز الملون » بأنها تمثل فتحا جديدا للرواية العربية .

وإذا كان مسرح محمد سلماوى ينبع من عالم الواقع المعاصر بعبثيته الضاحكة المريرة فإن قصصه تسكن عالم الشاعرية والخيال . . فها هو يروى لنا قصة باب مسحور ، أو عود غاب جميل خابت أحلامه ، أو جواد فتى طار بجناحين فوق السحاب . . لكن من خلال ذلك العالم الحالم الحزين يقدم واقعية سقوط شاب فى براثن فتاة الليل ، أو الحبيبة التى نتعرف على مأساتها من خلال محادثة تليفونية من طرف واحد . . كما يقدم لنا القضايا السياسية الكبرى من خلال قصة الشاب الذى استعاد ذاكرته بعد أن عادت لمصر عروبتها ، أو «الكمسارى » الذى تمكن من انقاذ الركاب من الكارثة التى أوقعهم فيها سائق الأوتوبيس .

إن قصص « باب التوفيق » تدخلك عوالم متنوعة ، فما تكاد تألف أحدها حتى ينقلك الكاتب بسرعة تتحدى الملل إلى عالم آخر .